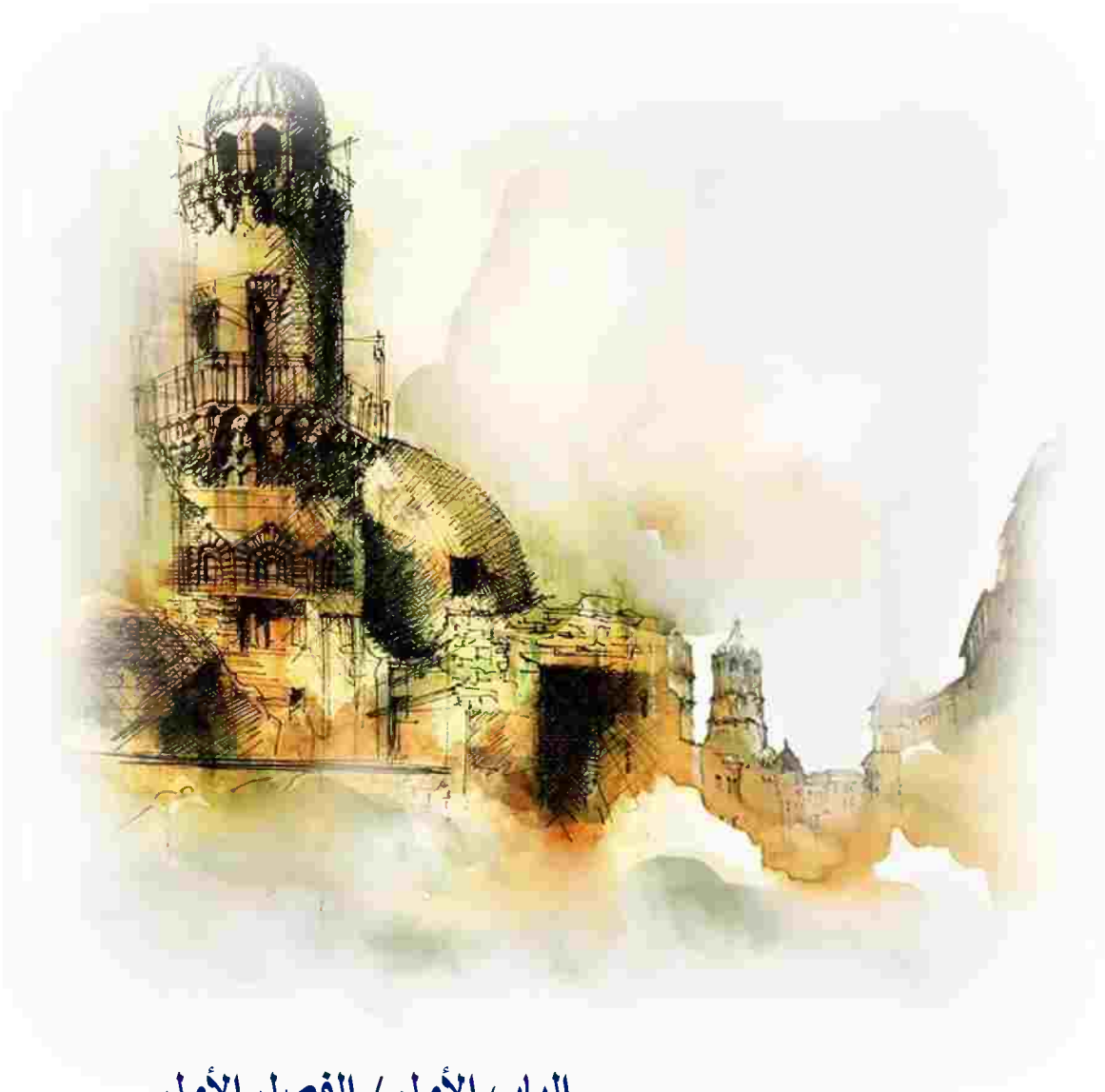

الباب الأول / الفصل الأول ..

المماليك في مصر ..

الإطار التاريخي ..

تعتمد منهجية الدراسة لهذا الجزء على الدراسة التاريخية التحليلية :

- **الفكرة الكامنة وراء هذا الجزء :** **The idea behind this part**

عند الشروع في دراسة الفكر الفلسفي والتصميمي للفراغات الدينية في العصر المملوكي نجد من الضروري التطرق لدراسة نشأة وحياة المماليك ومعرفة السيكولوجية التي أثرت في بناء شخصية المملوك ، لمحاولة فهم أبعاد هذه الشخصية ، وذلك لمحاولة فك رموزها وما آل منها من مظاهر حضارية مختلفة ،أثرت في التاريخ الإنساني لفتره من الزمن والتي مازالت مظاهرها وآثارها باقية إلي الآن .

- **الهدف من هذا الجزء :** **The objective of this part**

الوصول إلى كيفية تأثير نشأة المماليك على شخصياتهم وبالتالي تأثيرها على فكرهم وعقيدتهم في البقاء ومضمون الخلود وكيف أثر ذلك على شكل العمارة في هذه الفترة التي اختلفت عن سابقتها ..
فنجد **الشخصية المملوكية قد جمعت متناقضات عدة ، كان لها عظيم الأثر في خلق فلسفة خاصة بهم ، وتأثرت بها عمائرهم** في :

١. التناقض بين نشأة الفقر والحرمان وما وصلوا إليه من جاه ومال وسلطان:	- أظهر في الفراغات المعمارية التضاد العضوي والبيئي بين البيئة الخارجية (حياتهم الأولى في البيئة العسكرية القاسية) والبيئة الداخلية للفراغ (الجنة والرفاهية وحلمهم الموعود) فظهر ذلك باهتمامهم المبالغ في الزخرفة الداخلية .
٢. الحنين للخلاء وامتداد الرؤية البصرية للسماء:	- (نمط المعسكرات الحربية) جعلهم يحرصون على وجود الفناء المفتوح على السماء .
٣. ظهر عندهم تشبيه بين حرمة ما يملكون (حريم المنزل) وحرمة المسجد:	- وظهر ذلك باستخدام التشكيلات الزخرفية للقوصرات فوق مدخل حريم المسكن وهي نفس التشكيلات الموظفة في المداخل الرئيسية للمساجد.
٤. الشعور بالعظمة والكبر:	- وظهر ذلك باستخدام المقياس الفخيم في المداخل لإشعار الداخل بصغر شأنه .
٥. شدة البأس والصلابة في الحياة انعكست على الخامات التشكيلية:	- التي أحبوا استخدامها في عمائرهم مثل حب النقش على الحجر وتعاشيق الرخام والتكسية الرخامية ويرجح ذلك عدم حبهم لتشكيلات الفسيفساء (الموزاييك).

- **محاور دراسة هذا الفصل :**

المماليك في مصر .. الإطار التاريخي..

تمهيد تاريخي (التسلسل التاريخي منذ بدء الحكم الإسلامي لمصر وصولاً للدولة المملوكية) ..

- **نشأة المماليك**
- **المماليك في مصر**
- **مماليك الدولة الطولونية ..**
- **مماليك الدولة الإخشيدية ..**
- **مماليك الدولة الفاطمية ..**
- **مماليك السلاجقة وقيام الدولة الأيوبية.**
- **المماليك البحرية ..**
- **المماليك البرجية ..**

بناء المجتمع في مصر على عصر سلاطين المماليك

- **تربية المماليك ..**
- **انتساب المماليك ..**
- **سيكولوجية المماليك ..**
- **تأثير الشخصية المملوكية على الفراغ المعماري ..**
- **الاهتمام بالفنون والعمارة ..**
- **القاهرة في العصر المملوكي ..**

تمهيد تاريخي (التسلسل الزمني) :

بدء الحكم الإسلامي لمصر في عهد الخلفاء الراشدين	٢١ - ٤٠ هـ ٦٤٠-٦٦١ م	الأمويون	٤١-١٣٢ هـ ٦٦١-٧٥٠ م
العباسيون	١٣٢-٦٥٦هـ/٧٥٠-٨٦٨ م	الطولونيون	٢٥٤-٢٩٢هـ/٨٦٨-٩٠٥ م
العباسيون	٩٠٥-٩٣٥ م	الإخشيديون	٣٢٣-٣٥٨هـ/٩٣٥-٩٦٩ م
الفاطميون	٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١ م	الأيوبيون	٥٦٧-٦٤٨هـ/١١٧١-١٢٥٠م
المماليك	٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧ م[1]		

▪ عصر صدر الإسلام في مصر: Early Islam Era in Egypt

في العاشر من ذي الحجة من العام الثامن عشر من الهجرة الموافق ١٢ ديسمبر من عام ٦٣٩ ميلادية عسكرت قوات عمرو بن العاص على مشارف العريش وفي ٩ إبريل عام ٦٤١ ميلادية خرج الروم من حصن بابليون وفي ١٤ سبتمبر من ذات العام تسلم عمرو عقد الإذعان والاستسلام من المقوقس وكان ذلك إعلاناً عن تمام الفتح الإسلامي لمصر . وفي عام ٦٤٢ ميلادية بدء عمرو في تأسيس دعائم الحكم الإسلامي في مصر فبدأ بإنشاء عاصمة جديدة للبلاد بدلاً من الإسكندرية لبعدها عن مقر الخلافة الإسلامية وقربها من سواحل الروم .ولقد أرسل له الخليفة ابن الخطاب رسالة يوجهه فيها لصفات العاصمة الجديدة فقال له: "لا تجعلوا بيني وبينكم ماء حتى متى أردت أن أركب إليكم راحلتي حتى أقدم إليكم قدمت " ولذا اختار عمرو بن العاص الضفة الشرقية من نهر النيل ينشأ عليها العاصمة الجديدة الفسطاط [2].

خريطة (١/١/١): موقع مدينة الفسطاط.

Source:*http://www.picstopin.com/806/mapoffustat/ 7Cfustat1*jpg/.*

▪ العصر الأموي : Umayyad period

وينتسب الأمويون إلى أمية بن عبد شمس الجد الأعلى للأسرة، وهي الأسرة الحاكمة الأولى في التاريخ الإسلامي التي اعتمدت مبدأ وراثة الحكم ، وقد بدأ ظهور هذه الأسرة عقب مقتل عثمان بن عفان، وهو من أفراد الأسرة الأموية، ويعتبر معاوية بن أبي سفيان بن أمية مؤسس هذه الأسرة الأموية وهو الذي قاد الصراع ضد علي بن أبي طالب، وبعد مقتل علي سنة ٤٠ هجرية، نجح معاوية في أخذ البيعة له بعد تنازل الحسين بن علي عن الحكم له سنة ٤١ هـ / ٦٦١ م.

وقد اتخذ الأمويون دمشق عاصمة لهم، وأبرز خلفاء هذه الدولة عبدالملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٥ - ٧٠٥ م) الذي قضى على الثورات المضادة للدولة*، وقد تولى إمارة مصر من قبل الأمويين اثنان وعشرون والياً **تولى أربعة منهم الولاية مرتين، ويعتبر عبدالعزيز بن مروان أطول ولاة مصر في العصر الأموي مدة (والد الخليفة عمر بن عبدالعزيز) فقد مكث ما يقرب من عشرين عاماً من ٦٥ إلى ٨٦ هـ / ٦٨٥ إلى ٧٠٥ م ،

---

[1])http://ar.wikipedia.org/

[2])محمود – تامر سمير : ***دراسة تحليلية مقارنة لشكل العمراني والمعماري لمدينة القاهرة بين عصر محمد علي وعصر إسماعيل*** ، رسالة ماجستير ، جامعة عين شمس ، كلية الهندسة ، ٢٠٠٠، ص ٥.

* وقام بتعريب الإدارة والدواوين. ووصلت الدولة في عهد ابنه الوليد إلى أقصى اتساعها ٧٠٥- ٧١٥ م من تخوم الهند حتى الأندلس. وبعد سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م عقب مقتل آخر خلفائها مروان بن محمد في مصر، تمكن عبدالرحمن الداخل أحد أحفاد هشام بن عبدالملك من الفرار للأندلس وتأسيس خلافة جديدة للأمويين في الأندلس سنة ٧٥٦ ميلادية.

** من أهم ولاة مصر في العصر الاموي :عمرو بن العاص ٣٨ –٤٣ هـ ، من الصحابة، و هي الولاية الثانية له على مصر، الأولى كانت من قبل عمر بن الخطاب، و الثانية من قبل معاوية بن أبي سفيان.

-عتبة بن أبي سفيان ٤٣ – ٤٤ هـ : و هو أخو معاوية بن أبي سفيان ، ولاه معاوية بعد وفاة عمرو بن العاص، و لكنه لم يلبث أن مات عام ٤٤ هـ بعد عام واحد من ولايته.

- مسلمة بن مخلد ٤٧ – ٦٢ هـ : دامت ولايته حوالي خمسة عشر سنة، مكث على ولاية مصر حتى وافته المنية في عهد الخليفة يزيد بن معاوية.

-عبد العزيز بن مروان ٦٥ – ٨٦ هـ : دامت ولايته حوالي عشرين سنة، اشتهر بفقهه و جوده و كرمه، ضرب الطاعون في عهده أهل مصر، و أصيب هو بالجذام، فاعتزل الناس في حلوان و عمّرها، مكث في ولايته حتى مات.

وأقصرهم مدة حسان بن عتاهية الذي تولى لمدة ١٦ يوماً ثم هرب[1]. ويعتبر العصر الأموي عصر استقرار النظم السياسية والإدارية الإسلامية بمصر.

▪ الخلافة العباسية: Abbasid Caliphate

الدولة العباسية أو الخلافة العباسية أو العباسيون هو الاسم الذي يُطلق على ثالث خلافة إسلامية في التاريخ، وثاني السلالات الحاكمة الإسلامية. استطاع العباسيون أن يزيحوا بني أمية من دربهم ويستفردوا بالخلافة، وقد قضوا على تلك السلالة الحاكمة وطاردوا أبنائها حتى قضوا على أغلبهم ولم ينج منهم إلا من لجأ إلى الأندلس.

وتأسست الدولة العباسية على يد المنحدرين من سلالة أصغر أعمام نبي الإسلام محمد بن عبد الله، ألا وهو العباس بن عبد المطلب، وقد اعتمد العباسيون في تأسيس دولتهم على الفرس الناقمين على الأمويين لاستبعادهم إياهم من مناصب الدولة والمراكز الكبرى، واحتفاظ العرب بها، كذلك استمال العباسيون الشيعة للمساعدة على زعزعة كيان الدولة الأموية[2].

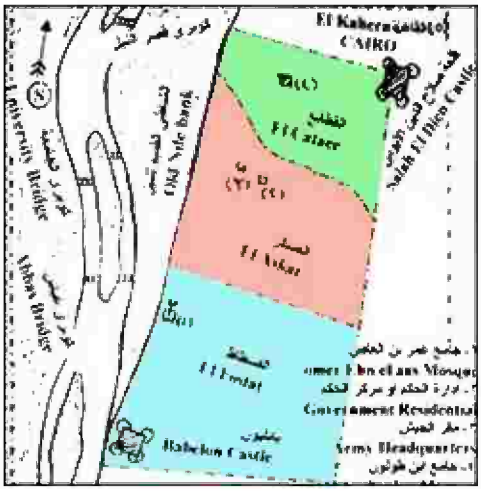

خريطة (٢/١/١) : موقع العسكر والقطائع بالنسبة للفسطاط.

Source:http://www.coptichistory.org/new_page_781.htm.(بتصرف من الباحث).

و تُعد الخلافة العباسية مرحلة مهمة من مراحل الحكم التي مرت بها مصر في العصر الإسلامي وقد تقرر على أرض مصر مصير هذه الدولة التي نشأت عندما أعلن قائد العباسيين أبو مسلم الخراساني الثورة على الأمويين سنة ١٢٩ هـ ودارت بين الأمويين والعباسيين معركة بدأت أولا عند نهر الزاب أحد روافد نهر دجلة ثم نقلت المعركة إلى مصر حيث انتصرت جيوش العباسيين بقيادة صالح بن علي العباسي على الأمويين وقتل الخليفة الأموي مروان الثاني في شهر ذي الحجة سنة ١٣٢هـ وذلك عند بلدة أبو صير من أعمال الجيزة .

بعد انتصار العباسيين على الأمويين وتمكنهم من الخلافة ودخولهم مصر قام القائد العباسي صالح بن علي بإقامة عاصمة له بمصر أطلق عليها اسم "العسكر " وذلك سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م بدلا من مدينة الفسطاط[3] .

▪ الدولة الطولونية : Tulunid State

أدخل المعتصم العباسي الأتراك إلى عصب الدولة العباسية، وولاهم معظم المناصب الكبرى، آلت إليهم الولايات العباسية، وبعد المعتصم بفترة كانت مصر من نصيب الوالي باكباك التركي الذي كان زوجاً لأم أحمد بن طولون، وأتى به إلى مصر، ثم آلت بعده إلى الوالي التركي برقوق الذي كان أبا زوجة ابن طولون، وأناب كل منهما ابن طولون للقيام بأمر مصر، فوليها في سنة ٢٥٤هـ / ٨٦٨ م . وعين واليا على الشام بالإضافة إلى مصر بعد ذلك بخمسة أعوام. ثم

-عبد الله بن عبد الملك بن مروان (٨٦ – ٩٠ هـ): ابن الخليفة عبد الملك بن مروان، دامت ولايته ثلاث سنين، ساءت سيرته عند أهل مصر، فعزله الوليد بن عبد الملك و ولى قرة بن شريك مكانه.

- محمد بن عبد الملك بن مروان(١٠٥ – ١٠٥ هـ): هو أخو الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان، ولاه أخيه على مصر سنة ١٠٥ هـ ، و لكنه عندما جاء إلى مصر وجد فيها وباءً، فطلب إعفاءه من الولاية فأُعفي. و بذلك تكون مدة ولايته لمصر شهراً واحداً.

-عبد الملك بن مروان بن موسي بن نصير (١٣٢ هـ): هو أول من أمر باتخاذ المنابر في الجوامع ليخطب من فوقها الخطباء. ثار عليه أهل مصر فقاتلهم و قتل منهم الكثيرين حتى أخضعهم. قدم إليه الخليفة مروان بن محمد فاراً من العباسيين الذين دخلوا دمشق سنة ١٣٢ هـ . و تبعه صالح بن علي بن عبد الله بن عباس، و التقى جيش العباسيين و على رأسهم صالح بن علي مع مروان بن محمد و عبد الملك بن مروان والي مصر في بلدة بوصير بالجيزه، و انهزم الأمويون و قُتل مروان بن محمد و أرسلت رأسه إلى الشام. و بذلك زالت دولة بني أمية التي استمرت حوالي قرن من الزمان، و قامت دولة العباسيين. للاستفاضة انظر :

http://egypthistory.net/#sthash.1j1GxRy7.dpuf

[1])http://www.eternalegypt.org/EternalEgyptWebsiteWeb/.display.module&module_flashrequired.text

[2])http://ar.wikipedia.org

[3]) http://www.sis.gov.eg/Ar/Templates/Articles/tmpArticles.aspx?ArtID=2261#.Uzy5v9IW2_Q

أعلن دولة مستقلة، وتعاقبت أسرته على حكمها لثمانية وثلاثين عاما. ولما رأى ابن طولون الفسطاط والعسكر تضيقان عنه وعن جنوده، فكر في بناء عاصمة جديدة وسماها القطائع، فبناها متأثراً ببهاء سامراء التي نشأ بها.

وتُوفي أحمد بن طولون سنة ٢٧٠هـ / ٨٨٤ م وخلفه على الحكم ابنه خمارويه الذي سار على نفس سياسة والده.[1] وعلى الرغم من كل ما أبداه "خمارويه" من اتباع لسياسة أبيه، ومن تمسك بمعالم استقلال وقوة دولته المستقلة.. إلا أنه لم يعد أن يكون مرحلة عبرها التاريخ ليدخل بالدولة -فورًا- في مرحلة الأفول والفناء؛ فبعد خمارويه انغمس الأمراء الطولونيون في لهوهم، وتفشت ظاهرة حب السلطة والاستقلال لدى عمالهم في الأقاليم.. وانقلب الثوريون على أنفسهم ، وقد ولي الأمر بعد خمارويه ثلاثة من آل طولون لم يزد حكمهم على عشر سنوات، ولم تستفد البلاد المصرية أو الشامية منهم شيئًا غير الفوضى والتنافس بين الطامعين في السلطة أو الفساد الذي نجم عن الترف، وعن الاستبداد وغيبة الأمة عن الرقابة أو الحكم..

وفي هذه الحال لم يكن الأمر متعبًا بالنسبة للدولة العباسية، فتقدمت جيوشها لاسترداد مصر من خامس الولاة الطولونيين وهو "شيبان"، الذي كانت الفوضى قد وصلت في عهده قمتها وأعلى معدلات خطورتها، وشهدت سنة ٢٩٢هـ دخول هذه الجيوش إلى القطائع في القاهرة.. ومن فوق المنبر أُعلن إزالة الدولة الطولونية التي لم تستطع أن تحكم أكثر من أربعين سنة، عاشتها في صراع خارجي وعاشت معظمها في صراع داخلي.[2]

▪ الدولة الإخشيدية: State Alikhchidip

بعد انهيار الدولة الطولونية على يد القائد العباسي " محمد بن سليمان الكاتب " في ٢٩٢هـ /٩٠٥ م عادت تبعية مصر المباشرة للخلافة العباسية وكانت الدولة العباسية في ذلك الوقت تمر بعواصف من الاضطرابات وعدم الاستقرار.

وبعد الدرس الذي تلقته الدولة العباسية من أحمد بن طولون، فقد حاول الخلفاء السيطرة على مصر من خلال كثرة تعيين الولاه وتغييرهم وباقتطاع جزء من اختصاصتهم ومنحه إلى عمال الخراج ، ففي خلال ثلاثين عاماً من سقوط الدولة الطولونية إلى تولية الإخشيد توالى على مصر أحد عشر والياً، بل ووصل الأمر إلى تغيير أربعة ولاه في سنة واحدة كما وصلت المنافسة بين الولاة وعمال الخراج إلى حد أن بعض عمال الخراج كان يتحكم في تغيير الوالي عن طريق الخليفة العباسي في بغداد .

وعلى الرغم من استيلاء العباسيين على مصر إلا أن النفوذ العباسي لم يكن مستقرا بها مما شجع أحد القادة الأتراك في الجيش العباسي في مصر وهو " محمد بن طغج الإخشيد " إلى الانفراد بالسلطة وبداية عصر الدولة الإخشيدية في مصر.

وكانت تجربة ابن طولون ودولته قد فتحت العيون على ما يمكن أن تقدمه مصر لمن يتولاها من إمكانيات فهي قاعدة عسكرية اقتصادية كبرى، من تمكن منها استطاع أن يحصل على مال وفير متصل، وبهذا يقيم لنفسه مُلكا يدوم بدوامه ويورثه لذريته ، لذلك حرص الأذكياء من ولاه مصر في هذه الفترة أن يثبتوا أقدامهم فيها ، وقد نجح في ذلك الإخشيد عندما أسس في مصر دولة شبه مستقلة ذات قوة لا يستهان بها.

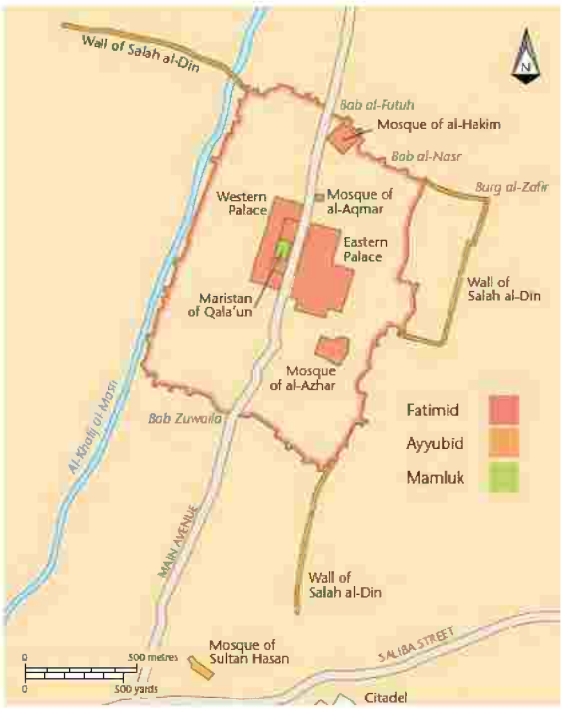

خريطة (٣/١/١) : القاهرة الفاطمية .

Source:http://www.picstopin.com/8001*jpg/

▪ الدولة الفاطمية: Fatimid state

قامت الدولة الفاطمية القوية في تونس وحاولت فتح مصر منذ ٩١٣ م ، ولما ضعفت الدولة الإخشيدية وخاصة بعد أن أوشكت على الانهيار عقب وفاة كافور استطاع القائد جوهر الصقلي وزير الخليفة المعز لدين الله الفاطمي أن يفتح الإسكندرية عام ٩٦٩ م ، وأعلن سيادة الخلافة الفاطمية على البلاد والتي استمرت في مصر نحو قرنين من الزمان (٣٥٨-٥٦٧ هـ / ٩٦٩ - ١١٧١ م)، وانتقلت الخلافة الفاطمية من تونس إلى مصر عندما جاء إليها الخليفة المعز لدين الله الفاطمي سنة (٣٦٢ هـ / ٩٧٢م) أي بعد أربع سنوات من الفتح الفاطمي

[1])http://ar.wikipedia.org/
[2])www.sis.gov.eg/Ar/Templates/Articles/tmpArticles.aspx?ArtID=2280

لمصر عمل خلالها القائد جوهر الصقلي على تنفيذ الخطة الفاطمية التي من أجلها فتحت مصر وهي توسيع الدولة ناحية الشرق ، وخلال تلك السنوات الأربع اختط جوهر عاصمة جديدة لمصر هي القاهرة [1] وبنى فيها قصراً للخليفة كما بنى الجامع الأزهر ليكون معهداً لتدريس العلوم الإسلامية .

- **الدولة الأيوبية** (٥٦٧-٦٤٨ هـ/ ١١٧١م - ١٢٥٠م) :

بعد وفاة الخليفة الفاطمي العاضد (أخر خلفاء الدولة الفاطمية) اجتمعت عناصر السيطرة على الحكم في مصر في يد صلاح الدين بن نجم الدين أيوب وزادت قوته وتأكدت بوصول العائلة الأيوبية كلها من الشام إلى مصر وتم إحلالهم في جميع الوظائف الكبرى بالبلاد محل كبار الموظفين الفاطميين، وقام صلاح الدين بدور كبير في إقامة الدولة الأيوبية في مصر بالتدريج ، فبدأ بإضعاف الخليفة العاضد وإبعاد قواده عن القاهرة وأحل محلهم رجالاً تابعين له ، وبدأ كذلك بتعميم حركة إنشاء المدارس ، وأول مدرسة أنشأها هي المدرسة الناصرية في الفسطاط [2] .

توفي صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٨٩هـ وترك دولة مترامية الأطراف ،وفراغاً كبير لم يستطع أحد من أبنائه السبعة عشر أو إخوته أو أبناء أخوته أن يملأه .

وقبل وفاته قسم ممتلكاته في الدولة بين أبنائه أي أنهم وزع عليهم حكم الأجزاء الرئيسية من الدولة ثم استبقى لأخوته وأقاربه المناصب الثانوية . فتولى الملك الأفضل نور الدين أكبر أبناء صلاح الدين دمشق والساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس حتى حدود مصر . أما الابن الثاني وهو العزيز عثمان فاحتفظ بمصر التي كان بها عند وفاة أبيه ، وتولى الابن الثالث وهو الظاهر غازي حكم حلب وشمال الشام .

وكانت هذه هي الأقسام الرئيسية في الدولة الأيوبية ،أما بقية أجزاء الدولة فقد وزعت على باقي أولاد صلاح الدين وأخوته [3].

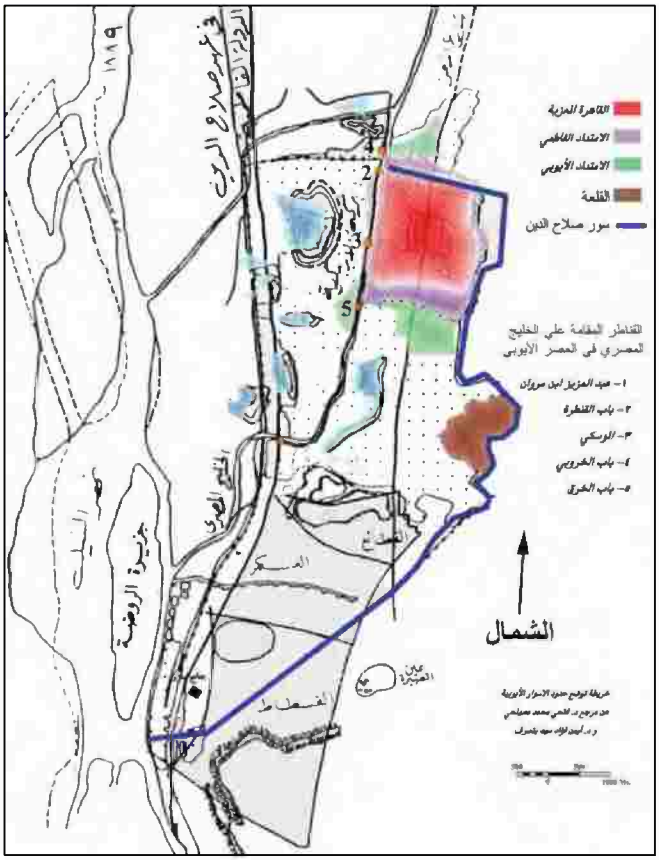

خريطة (٤/١/١): حدود القاهرة في العهد الأيوبي موضحاً عليها القاهرة المعزية والامتداد الفاطمي .

المصدر : محمود – تامر سمير : ***دراسة تحليلية مقارنة لسُبل العمراني والمعماري لمدينة القاهرة بين عصر محمد علي وعصر إسماعيل*** ، رسالة ماجستير ، جامعة عين شمس ، كلية الهندسة ،٢٠٠٠، ص٣٦.

---

[1])ريمون – أندريه : ***القاهرة تاريخ حضارة ،ترجمة لطيف فرج*** ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ،الطبعة الأولى ،القاهرة ، ١٩٩٤،ص ٤٠.

[2]) http://www.sis.gov.eg/Ar/Templates/Articles/tmpArticles.aspx?ArtID=2261#.Uzy5v9IW2_Q

[3]) النبراوي ، رأفت محمد : ***محاضرات في التاريخ مصر الإسلامية*** ، جامعة القاهرة ، كلية الآثار ، ٢٠١٣، ص ٩٦ ،١٠٧.

▪ الدولة المملوكية : The Mamluk State :

المماليك : من العبودية إلى السلطنة

تمهيد :-

ظهرت المماليك لأول مرة في العالم الإسلامي حين انخرط عدد قليل من الترك من بلاد فرغانة وطشقند وبلاد ما وراء النهر في قوات الحرس ،والسكرتارية الخاصة بدولة الخلافة العباسية في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي ، ولم يأت القرن التاسع إلا وكانت أعدادهم قد تضاعفت ، وحين حلت خلافة المعتصم (٢٢١-٢٧٦هـ) كان الحرس الإمبراطوري كله من الترك ، ومنذ ذلك الحين ، خصص لهذا الحرس مقر دائم في مدينة جديده هي " سامراء " التي أنشأها المعتصم على ضفاف دجلة شمالي بغداد[١] .

وكثرت أعدادهم نتيجة الفتوحات الإسلامية ، والتجارة ، فكان منهم الأبيض والتركي ، والصقلي ، واليوناني ، والأسود، والزنج الذين استقروا بشمال العراق ، والإخشيد بمصر.

▪ من هم المماليك؟

"المماليك" كما يتضح من مدلول اللفظ نفسه ، هم أرقاء أصبحوا في ملكية غيرهم ، عن طريق البيع والأسر في الحرب أو الإهداء[٢] ، تعود أصولهم إلى آسيا الوسطى قبل أن يستقروا بمصر[٣]، وهم من العناصر التركية المسترقة وليسوا من الأتراك الأحرار ، والعناصر المسترقة هم الذين كانوا يُباعوا أطفالاً وشباناً بسبب فقر أهليهم من مناطق أذربيجان ،القوقاز، جورجيا ، منغوليا وغيرها[٤] .. وهم الرقيق الأبيض الذين اعتمد عليهم حكام الشرق الأدنى الإسلامي ، لاسيما في مصر والشام، في صراعهم ضد بعضهم البعض في خضم الفوضى السياسية التي نشبت مخالبها في هذه الأنحاء عقب وفاة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي .

وكان أولئك الحكام المتنازعون يشترون المماليك صغاراً في سن الطفولة ينشئونهم تنشئة عسكرية وسياسية خاصة ليكونوا عدتهم في الصراع المرتقب ، وبدأ عنصر المماليك يتزايد في جيوش اولئك الحكام مما أدى إلى ازدياد دورهم في الحياة السياسية في مصر والشام منذ أخريات القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي .

خريطة (١/١/٥): الدول الإسلامية في حوض المتوسط.

Source: Mamluk Art the Splendour and Magic of the Sultans (Islamic Art in the Mediterranean) p:12

ويُعد السلطان الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧-٦٤٧ هـ/١٢٤٠-١٢٤٩ م) المسئول عن ازدياد نفوذ المماليك على النحو الذى أدى إلى استيلائهم على الحكم عقب وفاته ؛ ذلك أن تجاربه مع الجنود المرتزقة من الخوارزمية والأكراد علمته أن الاعتماد عليهم أمر غير مأمون العاقبة ؛ ولهذا اشترى عدداً كبيراً من المماليك من عناصر مختلفة من الأتراك ،والمغول ،والصقالبة، والإسبان، والألمان ،و الجراكسة .. وغيرهم إلا أن غالبيتهم في عصر دولة المماليك الأولى (البحرية) كانوا من بلاد القفجاق والقوقاز ، على حين كانت معظم عناصرهم في الدولة الثانية (الجراكسة) من الجراكسة[٥]...

و تشير المراجع إلى أن هؤلاء الأتراك الذين جاءوا إلى المجتمع الإسلامي

---

[١]) آصلان آبا- اوقطاى: ***فنون الترك وعمائرهم*** ،ترجمة أحمد محمد عيسى ،استانبول ١٩٨٧، ص٩.

[٢]) البهنسي – صلاح / حسام الدين – محمد: ***الفن المملوكي عظمة وسحر السلاطين*** ،سلسلة معارض "متحف بلا حدود" الدولية ،الفن الإسلامي في منطقة البحر المتوسط ، الدار المصرية اللبنانية ، ص ٤٠.

[3])http://ar.wikipedia.org/

[٤]) إبراهيم – سمير عمر – (د): ***الحياة الاجتماعية في مدينة القاهرة*** ، الهيئة المصرية ،١٩٩٢،ص ٣٩ .

[٥]) قاسم- عبده قاسم : ***عصر سلاطين المماليك*** ، دار الشروق ، الطبعة الأولي ، (١٤١٥ هـ /١٩٩٤م) ، ص٧.

الأول عن طريق الحرب أو الشراء لم يعاملوا معاملة سائر الرقيق بالخدمة في الأعمال الحقيرة مثل كنس الدار و سياسة الدواب و ما أشبه ذلك ، بل كانوا يتولون مناصب الحكم و القيادة في الدولة[1]، وارتقى المميزون منهم وذوي القدرات الخاصة إلى أرفع المناصب في الدولة إلى أن أنشأ عز الدين أيبك دولة باسمهم[2] .

و قد يؤيد ذلك قول المؤرخ ابن حسول* (ت ٤٥٠ هـ) في كتابه [تفضيل الأتراك على سائر الأجناد] : "و لا يرضى التركي إذا خرج من وثاقه إلا بزعامة جيش أو التوسم بحجابة او الرياسة على فرقة كما أنه لا يرضى إلا بأن يساويه سيده في مطعمه و مشربه وملبسه ومركبه ، و لا يسف في خدمة إلى ما يسف إليه سواه من الحاصلين في الرق و المجلوبين بالسبي ككنس الدار وسياسه الدواب و ما أشبه ذلك".

هذا وعلى ما يبدو أن استخدام المماليك الأتراك في الوظائف الكبرى في الدولة يرجع إلى بداية العصر العباسي الأول فيروى الكندي** (ت ٣٥٠هـ) في كتابه [الولاة و القضاة] : "أن الخليفة أبا جعفر المنصور قد ولى على إمارة مصر مملوكه التركي يحيى بن داود الخرسي (١٦٢ – ١٦٤ هـ) ووصفه وصفاً يعبر عن ذلك الولاء الذي يربط المملوك بأستاذه، إذ قال فيه : "هو رجل يخافني و لا يخاف الله" هذا و يذكر الطبري*** (ت ٨٣٩هـ) : "أنه في عهد هارون الرشيد عمرت مدينة طوسوس على يد أبى سليم فرج الخادم التركي كذلك استخدم المأمون عدداً من المماليك الأتراك في حرسه نذكر منهم طولون الذي أرسله إليه حاكم مدينة بخاري ضمن هدايا الرقيق التركي سنة ٢٠٠ هـ ، وتدرج طولون في الرقي حتى صار قائداً للحرس الخلافي العباسي وهو والد أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية في مصر والشام[3]، وقد شنوا حروب كبيرة ضد الصليبيين وضد المغول ووصلوا بملكهم إلى حدود أرمينيا ، وظل المماليك يحكمون مصر حوالى ٢٥٠ عاماً بعد أن أقاموا دولتين .. المماليك البحرية من ١٢٥٠: ١٣٨٢ م .. والمماليك البرجية من ١٣٨٢ :١٥١٧م[4].

١/١/١ المماليك في مصر : The Mamluks in Egypt

- **بداية المماليك ..**

توسعت مصر في استخدام المماليك قبل قيام دولتهم بها بوقت طويل. ولعل المسؤول الأول عن ذلك هو الخليفة المعتصم****وإمعانه في الميل إلى استخدام الترك ، إذ يروي الكندي أن المعتصم كتب إلى واليه التركي على مصر واسمه كيدر أو نصر بن عبد الله يأمره بإسقاط العرب من ديوان الجيش وقطع أعطياتهم منه . فلما قطع كيدر الأعطيات خرج يحيي بن الوزير الجروي وقال :" هذا أمر لا تقوم في أفضل منه لأنه منعنا حقنا وغيثنا " ، واجتمع إليه نحو من خمسمائة رجل ،فتوجه إليهم مظفر بن كيدر وحاربهم عند بحيرة تنيس ،وفرقهم بعد أن أُسر يحيي بن الوزير ، ومنذئذ صار جند مصر وولاتها من المماليك الأتراك أو ذراريهم ، كما صار منهم جند الولايات الأخرى وولاتها ، ومن أولئك أحمد بن طولون .

---

[1]) العبادى - أحمد مختار- (د) : ***في تاريخ الأيوبيين والمماليك*** ، دار النهضة العربية ، بيروت ،١٩٩٥م ،ص١٠.

[2]) حسن – أسامة : ***الناصر محمد بن قلاوون*** ، دار الأمل ، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧م ،ص ٥.

*__ابن حسول :__المتوفى سنه ٤٥٠هـ/١٠٥٨م هو محمد بن علي بن الحسن ،أبو العلاء ،ابن حسول :أديب ،من الكتاب وله نظم رقيق ،همذاني الأصل تقلد ديوان الرسائل وذاع صيته في الدولة السلجوقية .

**__الكندي:__ أبو عمر الكندي هو محمد بن يوسف بن يعقوب بن حفص بن يوسف بن نصير أبو عمر التجيبي الكندي نسبة إلى تجيب وهم من بطون قبيلة كندة المشهورة. ولد في مصر في ١٠ ذو الحجة سنة ٢٨٣ هجرية الموافق ١٧ يناير ٨٩٧م وتوفي بها في ٣ رمضان سنة ٣٥٠ هجرية/ ١٥ أكتوبر ٩٦١م. خلف الكندي اثارا وكتبا متعددة ضاع معظمها ولكن تبقى منها كاملا كتابان هما "تسمية ولاة مصر" وأحيانا يسمى "امراء مصر حروبهم والأحداث التي وقعت في عصر كل منهم بدأ بعمرو بن العاص وصولا إلى محمد بن طغج الاخشيدي حيث تنتهي الرواية بوفاته في ذي الحجة ٣٣٤ هجرية ويلي ذلك تتمة اضافها مؤرخ اخر من بعده تشمل باقي الولاة حتى دخول الفاطميين مصر.
الكتاب الثاني هو كتاب "قضاة مصر" ويشمل على تاريخ القضاة الذين تولّوا منصب القضاء في مصر حتى عام ٢٤٦.

***__الطبري:__ محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري٢٢٤ هـ - ٣١٠ هـ / ٨٣٩ - ٩٢٣م، إمام من أئمة المسلمين المشهورين. مؤرخ ومفسر وفقيه مسلم صاحب أكبر كتابين في التفسير والتاريخ.

[3]) العبادي – أحمد مختار- (د) :مرجع سابق ، دار النهضة العربية ، بيروت ،١٩٩٥م ، ص١١،١٠.

[4]) حسن – أسامة : مرجع سابق، دار الأمل ، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧م ، ص ٥.

****الخليفة المعتصم : أبو إسحاق محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور ثامن الخلفاء العباسيين، ولد سنة ١٧٩ هجرية وتوفي بمدينة سامراء في ١٨ من ربيع الأول سنة ٢٢٧ هجرية /٤ من فبراير سنة ٨٤٢ ميلادية، وكان في عهد أخيه المأمون واليا على الشام ومصر وكان المأمون يميل اليه لشجاعته فولاه عهده، وفي اليوم الذي توفي فيه المأمون بطرسوس بويع أبو اسحاق محمد بالخلافة ولقب بالمعتصم بالله في ١٩ من رجب سنة ٢١٨ هجرية /١٠ من أغسطس سنة ٨٣٣ ميلادية، وبحسب المؤرخين فقد كان يملك قوة بدنية وشجاعة مميزة، غير أنه كان محدود الثقافة وضعيف في الكتابة، وما ميز عهد المعتصم هو استعانته بالجنود الأتراك وذلك للحد من المنافسة الشديدة بين العرب والفرس في الجيش والحكومة.

وعند ختام القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي قام حاكمها أحمد بن طولون ٢٥٤ - ٢٧٠ هـ / ٨٦٨ - ٩٠٥ م وهو من سلالة المماليك التركية بخلع الخلافة العباسية عن مصر ، واعتلى عرش مصر ، ولا تزال آثار حكمه الزاهر ظاهرة واضحة في جامعه الذي أسسه بالقطائع . ولكن الطولونيين ما لبثوا أن رجعوا إلى ولائهم للخليفة العباسي ، ثم استقلت مصر.

١/١/١ . ١ مماليك الدولة الطولونية : Mamluk Tulunid

وكان طولون مملوكاً تركياً ممن أرسلهم حاكم بخاري نوح بن أسد السامانى في جملة من الرقيق والهدايا للخليفة المأمون سنه ٢٠٠ هـ / ٨١٥ م . وتدرج طولون في حياة المماليك بالمجتمع العباسي حتى صار رئيس الحرس الخليفي ، وتمكن من تربية ابنه - أو متبناه - أحمد تربية عسكرية إسلامية أهلته لأن يصبح حاكماً على مصر سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م .

وطبيعي أن يعتمد ابن طولون على المماليك من أبناء جنسه التركي في ولايته ، غير أنه طمع إلى شيء من الاستقلال بمصر ، ولذلك اهتم فيما اهتم بالجيش على وجه خاص ، ولم يقنع هو وابنه خمارويه بعده بالمماليك الأتراك فحسب ، بل جعل بجيشه فرقاً من العرب الأحرار ، فضلاً عن فرق من الرقيق الأسود والروم ، ويجمع المؤرخون العرب على ضخامة ذلك الجيش إلى درجه اضطرت أحمد بن طولون إلى بناء ثكنات لهم وهي القطائع [١] .

وكثيراً ممن دخل الجيوش الطولونية رقيقاً ، قد تحرر فيما بعد ، وذلك ينطبق على الجند والقادة سواء ، إذ المعروف ان ابن طولون أعتق أعداداً كبيرة من جنده لينشئ منهم جيشاً ممتازاً . ولذا يرجح أنه لم يوجد في الجيش الطولوني مماليك كثيرون في أواخر أيام ابن طولون .

١/١/١ . ٢ مماليك الإخشيديين : ikhshidid Mamluk

الإخشيديون (بنو إخشيد) : هم سلالة تركية مستعربة حكمت في مصر و الشام سنوات ٣٢٣ - ٣٥٨ هـ / ٩٣٥ - ٩٦٩م ، ومقر حكمهم الفسطاط ، وتنحدر هذه الأسرة من أحد القادة العسكريين الصغد في فرغانة (اليوم طاجكستان)[٢].

والإخشيد كان لقباً يتلقب به ملوك فرغانة بإقليم تركستان ، وهذا اللقب خلعه عليه الخليفة أيام انتصاراته ضمن جيش تكين الذي انتصر على جيش عبيد الله المهدي الفاطمي قائد المهدى بشمال إفريقيا[٣] .

وقد أسس الأسرة محمد بن طغج* ٣٢٣ - ٣٣٤ هـ / ٩٣٥-٩٤٦ م والذي تولى سنة ٩٣٠ م ولاية الشام من قبل العباسيين، ثم أصبح سنة ٩٣٣ م والياً على مصر . استقل بالأمر منذ سنة ٩٣٥ م ، وكلفهم العباسيون بعدها بمحاربة الفاطميين. وقد تلقب سنة ٩٣٨ م بـ"الإخشيد" .

وبعد وفاة الإخشيد أصبح الأمر بين يدي قائده الأسود كافور الإخشيد ٣٥٥ - ٣٥٧ هـ / ٩٤٦-٩٦٨ م. تولى الأخير إدارة الحكم بينما كان ابني الإخشيد دون السن التي تؤهلهما لهذه الأمور** ثم أصبح كافور سنة ٩٦٦ م والياً من قبل العباسيين على مصر[٤]. وسارت الدولة الإخشيدية على سنة أسلافها الطولونيين في اتخاذ المماليك الأتراك حتى إنه يقال إن مماليك محمد الإخشيد بلغ عددهم ثمانية آلاف مملوك . ويبدو أن الجيش الإخشيدي اشتمل أيضاً عدد كبير من العبيد السود بدليل حلول أحدهم وهو كافور محل الإخشيد في حكم مصر .

---

[١]) العبادي – أحمد مختار- (د): ***في تاريخ الأيوبيين والمماليك*** ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٩٥م، ص ٢٩ ، ٣٠ .

[2])http://ar.wikipedia.org/

[٣]) عوف – أحمد – (د) : ***أحوال مصر من عصر لعصر*** ، العربي للنشر والتوزيع ، ص ٥٨.

* محمد بن طغج: محمد بن طغج الإخشيدي المؤسس الأول للدولة الإخشيدية في مصر، تولى الحكم في مصر مكافأة له على تصديه لمحاولات الفاطميين لدخول مصر. ولد سنة مائتين وثمانيه وستين هجرية. التحق بخدمة الخليفة العباسي المكتفي. وحيث أنه كان أكبر إخوته السبعة فكان ينوب عن أبيه في حكم دمشق وطبريه، كما تقلد وظائف عديدة بمصر والشام.
كانت مصر مطمحه سياسيًا، وكللت جهوده في بلاط الخلافة باستصدار قرار بتوليته على مصر، وبعدها تم عزله ثم صدر له قرار بتولي الحكم مرة أخرى سنة ثلثمائة وثلاثة وعشرين هجرية. ولم يكن الطريق ممهدًا لذلك، فقد كان عليه أن يقاتل منافسين أشداء، بيد أنه استطاع في النهاية تثبيت أقدامه في مصر رغم وقوعه بين شقي الرحى "الخلافة العباسية في بغداد، والخلافة الفاطمية في المغرب" وكان بقاء دولته رهنًا بقدرته على إدارة الصراع مع هاتين القوتين.
وعلى المستوى الشخصي كان الإخشيد شخصًا يتصف بالطموح والتطلع إلى السلطة. كلمة الإخشيد في اللغات التركية المحلية لتلك الفترة تعني "ملك الملوك" ويقال أنه كنيَّ بذلك لأنه ينتمي لملوك فرغانة، غير أنه ليس هناك أدلة تاريخية تعضد هذا الزعم.

** لما مات علي بن أبي بكر محمد بن طغج الملقب بالإخشيد أصبح العبد كافور وصياً على ولديه أبي القاسم أنوجور وأبي الحسن علي اللذين توليا ولاية مصر والشام من بعده. ثم تولى من بعدها كافور الولاية.

[4])http://ar.wikipedia.org/

ثم انتهت الدولة الإخشيدية بقيام الدولة الفاطمية في مصر (٣٥٨ – ٥٦٧ هـ)[١]، لتصبح خلافة فاطمية لا تتبع الخلافة العباسية في بغداد[٢] .

١/١/١ .٣ مصر خلافة شيعية ..

كان الشيعة يرصدون الضعف السياسي للدولة العباسية ؛ فوجدوا فيه فرصتهم لإقامة خلافة شيعية بعيداً عن مناطق النفوذ والصراع التركي والفارسي .

وقد حاول المهدي* غزو مصر عام ٣٠١ هـ / ٩١٤ م ؛ حيث استولى على الإسكندرية والفيوم ، ثم حاول أبو القاسم الفاطمي الاستيلاء على الصعيد عام ٩٢١ م لكنه هُزم . وأرسل المعز لدين الله** قائده جوهر الصقلي لفتح مصر والقضاء على الدولة الإخشيدية بعد موت حاكمها كافور ، واستولى عليها.

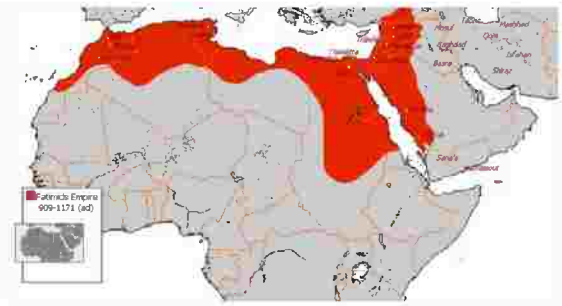

خريطة (٦/١/١): توضح حدود الدولة الفاطمية (٩٠٩-١١٧١م).

Source:http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D9%84%D9%81:Fatimids_Empire_909_-_1171_(AD).PNG

ولما دخلها قام بـ :

- إنشاء مدينة القاهرة .
- ودعا الخطباء للمعز من فوق المنابر.
- وقطع الخطبة باسم الخليفة العباسي.
- وضرب النقود باسم المعز .
- ومنع جوهر الناس من لبس السواد شعار العباسيين.
- وقام بإنشاء الجامع الأزهر ليكون مقراً لتدريس الدعوة الفاطمية الباطنية ، كل هذا تم ما بين عامي (٣٥٩ - ٣٦١ هـ / ٩٦٩ م - ٩٧٠م)[٣].
- وأسقط من الآذان عبارة (حي على الفلاح) ، واستبدلها بالعبارة الشيعية (حي على العمل) ، وأصبح الآذان شيعياً لأول مرة في مصر .

٣.أ **مماليك الدولة الفاطمية :** بعد إعلان الخلافة الفاطمية في مصر أصبح العالم الإسلامي يضم خلافة عباسية في بغداد وخلافة أموية في قرطبة بالأندلس وخلافة فاطمية في القاهرة . وبهذا انقطعت روابط مصر بالخلافة العباسية[٤].

والفاطميون لم يُكرهوا المصريين على اعتناق مذهبهم الشيعي ، بل تركوهم على مذهبهم السني. لكن رغم هذا كان الأزهر موئلاً للدعوة الشيعية ، ومركزاً للتدريس به لدعاته . لأن الفاطميين كانوا على ثقه لو أنهم تدخلوا في عقائد وتقاليد المصريين سوف يغضبهم هذا ويثيرهم . وهذا ما أكده (هيرودوت*) من قبل حيث وصف المصريين بأن

---

[١]) العبادي – أحمد مختار- (د) : ***في تاريخ الأيوبيين والمماليك*** ، دار النهضة العربية ، بيروت ،١٩٩٥م ، ص ٣١.

[٢]) عوف – أحمد – (د) ***:أحوال مصر من عصر لعصر*** ، العربي للنشر والتوزيع ، ص ٥٩.

* المهدي : عبيد الله المهدي الملقب بالمهدي بالله هو مؤسس الدولة الفاطمية ، وسميت الفاطمية نسبة إلى فاطمة الزهراء زوجة الخليفة علي بن أبي طالب وابنة الرسول النبي محمد (ص)، وسبب التسمية بالفاطمية لأن المهدي بالله أدعى نسبه إلى أهل البيت (محمد، علي وفاطمة) حتى يكسب أكبر عدد من الأتباع والمؤيدين لدولته. هو الخليفة الفاطمي الأول ومؤسس الدولة الفاطمية عام ٩٠٩ م في بلاد شمال أفريقيا بعد أن انتصر على دولة الأغالبة وكسب تأييد قبيلة كتامة هناك. اعتمد على أبو الحسن عبيد الله الشيعي في نشر الدعوة الفاطمية ثمّ قام بقتله . بنى مدينة المهدية وحاول احتلال بلاد مصر دون نجاح. عن:- https://sites.google.com/a/druzenet.tzafonet.org.il/drhistory/home/aldrwz-llmrhlte-aladadyh

** المعز لدين الله : هو الخليفة الفاطمي الرابع في إفريقية (تونس حالياً)،وأول الخلفاء الفاطميين في مصر، كان مثقفًا يجيد العديد من اللغات، محبًا للعلم والادب ويعتبر من أهم الخلفاء الفاطميين، بسط حكمه على رقعة واسعة ممتدة من المغرب حتى مصر وأهم أعماله:
- أرسل قائد جيشه جوهر الصقلي لاحتلال بلاد مصر من أيدي الإخشيدين وتمكن من ذلك لتصبح مصر المركز الجديد لحكم الفاطميين بعد تونس.
- بنى مدينة القاهرة وفيها قصر للخليفة والجامع الأزهر، وأصبحت عاصمة الدولة الفاطمية .
- سيطر على بلاد الشام (سوريا) ووصل نفوذه حتى بلاد الحجاز في الجزيرة العربية.
- اهتم بالناحية الثقافية وشجع العلماء ليقدموا إلى القاهرة لتصبح مركزًا علميًا يضاهي بغداد (عاصمة العباسيين) وقرطبة الأندلسية. عن : http://ar.wikipedia.org/

[٣]) عوف – أحمد – (د) ***:أحوال مصر من عصر لعصر*** ، العربي للنشر والتوزيع ، ص ٦٠.

[٤]) عوف – أحمد – (د) : المرجع السابق ، ص ٥٩.

* **هيرودوت:** هيرودوت أو هيرودوتس (باليونانية: Ἡρόδοτος) ، باللاتينية: Herodotus) كان مؤرخا إغريقيا عاش في القرن الخامس قبل الميلاد (حوالي ٤٨٤ ق.م - ٤٢٥ ق.م). اشتهر بالأوصاف التي كتبها لأماكن عدّة زارها وأناس قابلهم في رحلاته وكتبه العديدة عن السيطرة الفارسية على اليونان، عرف بأبو التاريخ. هيرودوتس معروف بفضل كتابه تاريخ هيرودوتس الذي يصف فيه أحوال البلاد والأشخاص التي لاقاها في ترحاله حول حوض البحر الأبيض المتوسط.

طبيعتهم هي التدين المفرط ، كما أكد هذا (لين**) حيث بيّن بأنه ليس في أخلاقهم الأصلية ما يستحق الاهتمام مثل اعتزازهم بدينهم ولهذا أدرك الفاطميون هذا فتحاشوه .

والفاطميون اشتهروا بتسامحهم مع الذميين ؛ ففي عهدهم نزح يهود الأندلس لمصر، ونزلوا بالفسطاط مكونين جالية يهودية[1] .

وإذا كثرت أنواع المماليك على عهد الطولونيين والإخشيديين ، فقد أضاف الفاطميون بمصر عنصراً جديداً جاءوا به من المغرب وهو الصقالبة .

ويبدو أن الخلافة الفاطمية أكثرت من المماليك الأتراك والصقالبة منذ قيام المعز أول الخلفاء في مصر بدليل اختيار العزيز وهو الخليفة الثاني لكثير من هؤلاء وأولئك لمناصب الثقة والقيادة والولاية لأن وصولهم إلى تلك المناصب معناه أن العزيز أعطاهم مناصب القوة في الدولة بحيث صارت المناصب العليا لديهم أهدافاً مشروعة . فولى مملوكه بنجوتكين التركي قيادة الجيش كما ولاه الشام ، وولى دنيا الصقلبي عكا ، وبشارة الإخشيدي طبرية ، ورباحا السيفي غزة ، وبرجوان الصقلبي إمارة القصر .

وليس أدل على إكثار الفاطميين من الصقالبة من تسمية أحد الشوارع الفاطمية في القاهرة باسمهم ، وهو الشارع الذي امتد بين حارة زويلة و خان أبو طاقية .

ولقد أثار تفضيل الفاطميين للترك والصقالبة عوامل الحسد والنضال بينهم وبين المغاربة ، ويظهر ذلك جلياً أثناء عهد **الخليفة الحاكم بأمر الله** ٣٨٦-٤١١ هـ/٩٩٦-١٠٣٠ م الذي استكثر من العبيد السود (السودان) للحد من نفوذ الفريقين . ثم قوي نفوذ الترك مرة أخرى في عهد الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم ٤١١ – ٤٢٧ هـ لميله إلى الأتراك والمشارقة ، فصارت قادة الجيوش في يد أبي منصور أنوشتكين ،وهو مملوك تركي الأصل يُعرف بالدزبري – وقد ولاه الظاهر فيما بعد دمشق سنة ٤١٩ هـ /١٠٢٨ م – ثم جاء **الخليفة المستنصر الفاطمي** ٤٢٧ – ٤٨٧ هـ فمال إلى عنصر العبيد السود واستكثر من شرائهم لأن أمه كانت أمه سوداء ، وظل هذا العنصر منبع القوة في الدولة إلى آخر عهد الدولة الفاطمية .

٣.ب **النّظم التربوية للمماليك في العصر الفاطمي** : اهتم الفاطميون بتربية صغار مماليكهم ، وهم في الواقع أول من وضع نظاماً تربوياً للمماليك في مصر ؛ فيروي المقريزي أن الأساطيل الفاطمية حملت إلى مصر كثيراً من أسري الحروب ، وجرت العادة أن يحضر أولئك الأسرى إلى مكان يسمى المناخ*** – جهة الإسماعيلية بالقاهرة اليوم - ، فتضاف الرجال إلى من فيه من الأسري السابقين ، ويمضي بالنساء والأطفال إلى قصر الخليفة بعد ما يعطي الوزير منهم طائفة ، ويفرق الباقي لخدمة المنازل ، ثم يدفع الصغار من الأسرى إلى الأستاذين ، فيربونهم ويعلمونهم الكتابة والرماية ويسمونهم "الترابي" وقد يرتقي أولئك الصبيان إلى رتب الأمراء .

وظلت تلك الطائفة موجودة أيام الدولتين الآيوبية والمملوكية ، ويلاحظ أن أصلها أشبه ما يكون بأصل بعض الانكشارية****في الدولة العثمانية غير أن الترابي لم تلعب في حوادث دول الفاطميين والأيوبيين والمماليك بمصر دوراً ظاهراً مثل الذي قامت به الانكشارية في الدولة العثمانية ، لأنها لم تخصص مثل الانكشارية للحياة الحربية وميادين القتال بل ظلت طائفة حول البلاط يكون منهم الغلمان وخدام القصر .

وهناك نظام تربوي آخر وضعه الفاطميون لتربية غلمانهم المعروفين بالصبيان الحجرية وهم فرقة من الشبان الذين سموا بهذا الاسم لأنهم عاشوا في ثكنات تعرف بالحجر وموقعها بجوار القصر الخليفي بالقاهرة . وجاء ذكر تلك

** **لين:** ستانلي لين بول (١٨ ديسمبر ١٨٥٤ - ٢٩ ديسمبر ١٩٣١) ولد في لندن، من عام ١٨٧٤ إلى عام ١٨٩٢ عمل في المتحف البريطاني، وبعد ذلك اشتغل بالبحث في مصر حول علوم المصريات. من عام ١٨٩٧ حتى عام ١٩٠٤ شغل كرسي الأستاذية للدراسات العربية في جامعة دبلن. عن: http://ar.wikipedia.org/

[1]) عوف – أحمد – (د) ***أحوال مصر من عصر لعصر*** ، العربي للنشر والتوزيع ، ص ٦٢.

*** (المناخ) : المكان الذي تناخ به الجمال ، وأطلق الفاطميون هذا الاسم على عدة من المخابز والمطاحن والمخازن المدنية ، والعسكرية التابعة للدولة . وأغلب الصناع في هذه الأمكنة من أسري الحرب من الفرنج وكانوا يقطنون بها.

**** (الانكشارية / JANISSARIES): لفظ حوره الأوربيون من يني تشري YENI CHERI أي الفرقة الجديدة في اللغة التركية . وكان جنود هذه الفرقة يؤخذون أطفالاً من العناصر المسيحية الخاضعة للدولة العثمانية (ضريبة الدم) ثم يربون تربية عسكرية إسلامية في مدارس خاصة فيتحولون إلي الرعية العثمانية المسلمة مع بقائهم رقيقاً للسلطان وتعتبر هذه الفرقة من المشاة من مستحدثات الحرب في ذلك العصر في الشرق والغرب ، ويرجع الفضل في انشائها إلي السلطان العثماني أورخان الأول سنة ٧٢٦ هـ/١٣٢٦ م .

الطائفة في دائرة المعارف الإسلامية علي أنها طائفة من المماليك كوَنها الوزير الأفضل شاهنشاه* وزير الخليفة المستعلي ٤٨٧ هـ كفرقة عسكرية تحت قيادة أمير يحمل لقب "الموفق" لتكون حرساً له ، وبلغ عدد تلك الفرقة ٣٠٠٠ مملوك غير أن المرجع الذي استمدت منه دائرة المعارف الإسلامية هذا الوصف ، يقول إن الحجرية كانوا "يختارون من أولاد الأجناد" ، وإذا سلمنا جدلاً أن أولئك الأجناد من المماليك الأتراك والصقالبة أو غيرهم مما امتلأت به جيوش الدولة الفاطمية ، فإنه لا يمكن تطبيق تلك التسمية على أبنائهم ، فأولئك لم يكونوا مماليك في يوم من الأيام ، إذ أن المملوك في المصطلح الرسمي المملوكي لابد وأن يكون قد مسه الرق أي مسته يد النخاس [1].

٣.ج **نهاية الدولة الفاطمية :** ظهرت نتائج الحروب الصليبية على مصر ففي شيخوخة الدولة الفاطمية تطلع إليها كل من نور الدين** والملك أملريك*** ، فما كان من وزير الخليفة إلا أن استعان بأحدهما على الآخر ، فغزا كل منهما الديار المصرية الواحد بعد الآخر . وفي نهاية الأمر أمضيت معاهدة ودية مع الأثنين ، ولكن أملريك كان أول من نقض ميثاقه الذي عاهد المصريين عليه وأطلق يد النهب والتخريب في المملكة وانتزع من البلاط الهدايا انتزاعاً ،فاستغاث الخليفة التعس بنور الدين وأرسل قائده شيركوه**** للنجده فتسلل أمامه أملريك مخذولاً ،وبذا أصبح شيركوه صاحب الكلمة ،وبعد ذلك بقليل خلفه في مركزه ابن أخيه صلاح الدين ،وفي عام ١١٧٠ م مات الخليفة فانتهت الدولة الفاطمية – بعد أن عمرت ٢٧٢ سنة – وأصبح صلاح الدين حاكم مصر[2].

٤. ١/١/١ مماليك السلاجقة وقيام الدولة الأيوبية : Mamluk Seljuk and Ayyubid State

انتهت الدولة الفاطمية بقيام الدولة الأيوبية على يد الناصر صلاح الدين سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١م ، والدولة الأيوبية كما هو معروف كردية الأصل ، ولكنها جاءت عن طريق الدولة السلجوقية التركية ومماليكها ، ونقلت عنها الكثير من عاداتها وأنظمتها التركية المشرقية ،وطبقتها في مصر والشام لأول مرة . ولهذا فإنه لا يمكن فهم تاريخ الدولة الأيوبية فهماً جيداً إلا على ضوء دراسة تاريخ السلاجقة وأنظمتهم العسكرية .

ولقد اعتمدت الدولة السلجوقية منذ نشأتها الأولي على المماليك من الترك ،وورث هؤلاء سياستها ومراميها .والقاعدة العامة المعروفة عن السلاجقة في ضوء تاريخهم ، هي أنهم اعتقدوا أنه لا يمكن للفرس والعرب أن يخلصوا في خدمة ساداتهم الأتراك ، وأنه من الأفضل الاعتماد على وفاء المماليك الأتراك الذين ربوا ونشأوا في البلاط على مقربة من سلاطين السلاجقة وأمرائهم ، وصار هؤلاء المماليك يجلبون وهم صغار السن من بلاد القفجاق* ، ثم يربون تربية خاصة على أساس النظام التربوي المملوكي السامانى الذي وصفه نظام الملك الطوسي وزير آل سلجوق في كتابه سياسة نامة إرشاداً للحكام السلجوقيين ، ويضيف نظام الملك في ذلك الصدد أنه " يجب ألا يثقل على المماليك القائمين على الخدمة إلا إذا دعت الحاجة ، ولا ينبغي أن يكونوا عرضه للسهام في كل حين ، ويجب أن يتعلموا كيف يجتمعون على الفور إذا صدر بأحدهما الأمر .

وكذلك يجب أن يقال لهم مرة أخرى كيف ينبغي للشيء أن يكون حتى ينتهجوا إليه سبيلاً . ولا حاجة إلى التكلف كل يوم بإصدار الأمر بمباشرة الخدمة لمن يكون من الغلمان: صاحب الماء وصاحب السلاح ، والساقي وأشباه ذلك ، ولمن يكون من

---

* (شاهنشاه) : هو الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي وهو من أصل أرمني ،إذ كان والدهم مملوكاً أرمنياً لجمال الدولة بن عمار فعرف بالجمالي ثم ظل يترقى إلى أن صار حاكماً على الشام وقد استنجد به الخليفة الفاطمي المستنصر بالله للقضاء على فتن طوائف الجند بمصر ، فأضاف بذلك عنصراً جديداً في الجيش والدولة وهو العنصر الأرميني . وقد خلف الأفضل أباه بدر الجمالي في منصب الوزارة.

[1]) العبادي – أحمد مختار - (د): ***في تاريخ الأيوبيين والمماليك*** - دار النهضة العربية – بيروت - ١٩٩٥م- ص ٣١ :٣٤ تلخيص.

** نور الدين : هو نور الدين محمود زنكي وهو أبو القاسم محمود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر. يلقب بالملك العادل، ومن ألقابه الأخرى ناصر أمير المؤمنين، تقي الملوك، ليث الإسلام، كما لقب بنور الدين الشهيد رغم وفاته بسبب المرض. وهو الابن الثاني لعماد الدين زنكي.

***أملريك : ملك الفرنجه في بيت المقدس.

**** شيركوه : أسد الدين شيركوه بن شاذى بن مروان بن يعقوب الدوينى، المولود ببلدة 'دوين' على أطراف أذربيجان مع جورجيا سنة ٥٠٠ هجرية تقريباً وهو كردي الأصل، وشيركوه بالكردية : أسد الجبل، فشير بالكردية:أسد، وكوه : جبل، نشأ هو وأخوه نجم الدين أيوب والد صلاح الدين، بتكريت لما كان أبوهما شاذى 'ومعناها فرحان' نقيب قلعتها، وكان نجم الدين أسن من أسد الدين، ويغلب على نجم الدين العقل والحكمة والتؤدة، في حين كان أسد الدين كالشهاب الحارق لا يصبر على إساءة أو عدوان أو انتهاك حرمات وهذا ما سينقل حاله من مكان لآخر. عن: http://ar.wikipedia.org/

[2]) موير – (السير) وليم – ترجمة / محمود عابدين وسليم حسن : ***تاريخ دولة المماليك في مصر*** – صفحات من تاريخ مصر – مكتبة مدبولى – القاهرة – الطبعة الأولى – ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م - ص ٢٣.

*قبچاق بالإنجليزية Kipchaks ،و بالتركية Kypchak ، هي بلاد القبجاق أو القفجاق أو القبشاق وتعرف أيضا باسم القبيلة الذهبية ، وهو إقليم يحوض نهر الفولجا بالجنوب الشرقي من روسيا الحالية و شمال البحر الأسود و القوقاز ، وأهله من الترك ، وكانوا أهل حل و ترحال على عادة البدو و في ضيق من العيش ، وبلادهم كانت سوقاً عظيمة للرقيق المماليك الترك.عن:

Grousset, René : "***The Empire of the Steppes: A History of Central Asia***". Rutgers University Press, 1988. P: 185.

الغلمان في خدمة كبير الحجاب وكبير الأمراء بل يجب أن يؤمروا بأن يبرز للخدمة في كل يوم من كل دار عدد معين ومن الخواص عدد معين كذلك حتى لا يكون في ذلك مشقة[1] ".

وكان يتم تدريب المماليك عسكريا ليكونوا سنداً لحكام المنطقة العربية من الأيوبيين المتنافسين ، وخصوصا بعد الفوضى السياسية ، التي اعقبت وفاة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي ، فزادت أعدادهم ، كما زاد أهميتهم في الحياة السياسية الآيوبية ودوائر الحكم في مصر والشام .

.. ذكر ابتداء الدولة الآيوبية ومُلكهم..

١. الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي .	▪ تسلم الملك بالديار المصرية يوم وفاة العاضد* في يوم عاشوراء سنة ٥٦٧هـ ، وتوفي يوم الأربعاء بالكرك سنة تسع وثمانين وخمسمائة وبلغ عمره ستاً وخمسين سنة وشهوراً . ▪ وفي سنة سبعين وخمسمائة وصل إلى دمشق وتسلمها بغير قتال ، ثم خرج متوجهاً إلى حمص ، وصعبت عليه قلعتها ، فتوجه إلى حماه وملكها . ثم عاد إلى حمص وأخذها بعد قتال شديد ، ثم بعلبك ، ثم إلى حصن نارين وفتحه . ▪ وفي سنة ٥٧٢ هـ أمر بإنشاء سور على مصر والقاهرة ، وابتدأ بالقلعة ، وعقبها موقعة الرملة ، ثم سار إلى عسقلان ، فسبى وأسر وغنم من الفرنج كثيراً وعاد إلى مصر .
٢. الملك العزيز عماد الدين عثمان بن يوسف بن أيوب .	▪ ملك الديار المصرية يوم الأربعاء بعد وفاة أبية لثلاث بقين من صفر سنة ٥٨٩ هـ ، وخرج إلى الفيوم يتصيد ، فتقنطر وحُمَ وحمل إلى القاهرة ، فمات بها ليلة الأحد حادي وعشرين المحرم سنة ٥٩٥هـ .
٣. الملك المنصور محمد بن عثمان بن يوسف بن أيوب .	▪ ملك مصر يوم وفاة والده حادي وعشرين المحرم سنة ٥٩٥هـ .
٤. الملك الأفضل نور الدين على بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب .	▪ وصل إلى القاهرة فحَلَفَت له الأمراء ، وقصد دمشق ونزل عليها وحاصرها ، وكان بها الملك العادل ، فوصل الكامل محمد بعساكره إلى دمشق ، فرحل الملك الأفضل عنها ، فتبعه الملك العادل منزلة بمنزلة إلى أن التقيا بالسانح ،فانهزم عسكر الأفضل ، وركب الملك العادل إلى أن وصل البركة ، ونزل بها ثمانية أيام ، ثم دخل القاهرة لثلاث عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر سنة ٥٩٦هـ .
٥. الملك العادل أبو بكر بن أيوب بن شيركوه .	▪ دخل القاهرة وملك الديار المصرية ودمشق ، لثلاث عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر سنة ٥٩٦هـ ،ومات بخربة اللصوص** قرب دمشق في السادس جمادى الآخرة سنة ٦١٥هـ ، وكان عمره ثلاثاً وسبعين سنه وشهوراً ، وكان ولده المعظم عيسى نائباً عنه بدمشق .
٦. الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبو بكر.	▪ استقل بملك الديار المصرية يوم وفاة والده سادس جمادى الآخرة سنة ٦١٥هـ . وفيها نزلت الفرنج في حياة الملك العادل إلى دمياط ، وأقاموا في برَ الجيزة ثلاثة أشهر وأربعة أيام[2] ، وزحفوا براً وبحراً ، وخرج الملك الكامل لقتالهم .
٧. الملك العادل أبو بكر بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل .	▪ تولى المملكة يوم وفاة والده نهار الأربعاء لتسع بقين من رجب سنة ٦٣٥هـ ، وقبض عليه واعتقله شبل الدولة كافور وشمس الخواص مسرور والصفي جوهر النوبي خُدَام أبيه والحلقة ، وذلك بظاهر بلبيس في يوم الجمعة تاسع شوال سنة ٦٣٦ هـ وأرسلوا إلى أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فحضر وتسلم الملك ودخل القاهرة واعتقل أخاه ، ثم رسم بتجهيزه إلى الكرك ليعتقله هناك ، فأبى ذلك ، فأرسل إليه محسن الخادم وصحبته عشرة مماليك فقتلوه خنقاً ، أُخرج ودُفن .
٨. الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك	▪ تسلم المُلك يوم الجمعة ثالث وعشرين شوال سنة ٦٣٦هـ [3].

---

[1]) العبادي – أحمد مختار- (د): ***في تاريخ الأيوبيين والمماليك*** - دار النهضة العربية – بيروت - ١٩٩٥م- ص ٣٥ :٣٦ تلخيص.

*العاضد : العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله ولد حسب رواية المقريزي يوم الثلاثاء لعشر من المحرم سنة ٥٤٦ هجريا وبويع لثلاث عشرة من رجب سنة ٥٥٥ هجريا وعمره يومئذ تسع سنين.

**خربة اللصوص: واقعة بين دمشق وبيسان.

[2])http://ar.wikipedia.org/

[3]) مهدى - شفيق (د) : ***مماليك مصر والشام*** - الدار العربية للموسوعات - بيروت - ٢٠٠٨- ص ٧٨.

الكامل محمد .	
٩. الأمير فخر الدين بن الشيخ .	▪ أقامه الملك الصالح قبل وفاته أتابك العسكر ، وأوصى بالمُلك لولده الملك المعظم ، فلم يزل يدبّر العسكر إلى أن قتله الفرنج يوم الثلاثاء خامس ذي القعدة سنة ٦٤٧ هـ .
١٠. الملك المعظم غياث الدين ترنشاه بن الملك الصالح أيوب .	▪ كان أول ملكه بالديار المصرية يوم الثلاثاء تاسع عشر ذي القعدة سنة ٦٤٧هـ ، قتلته المماليك وقطّعوه وأحرقوه بالنار ، وغرقوه في بحر المنصورة ، يوم الثلاثاء المحرم سنة ٦٤٨ هـ [1] .

ويعتبر السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب المسئول عن ازدياد نفوذ المماليك ، حيث اقتنى أعدادا منهم تفوق سابقيه وأسكنهم بجزيرة الروضة ، وقد أطلق على هؤلاء المماليك لقب المماليك البحرية ، وكان أغلبهم من الأتراك من جنوب روسيا ، وكانت لهم من السطوة ما مكنهم من السيطرة على مقاليد الحكم بعد الأحداث التي أعقبت وفاته .

وكان لاعتماد سلاطين المماليك في حكمهم على القوة العسكرية التي يجسدها مماليكهم أكبر الأثر في ازدياد أعدادهم طوال العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) .

- **تلخيص :**

[1] قاسم- عبده قاسم : ***عصر سلاطين المماليك*** – دار الشروق - الطبعة الأولي - (١٤١٥ هـ /١٩٩٤م) – ص٦٣،٦٤ تلخيص .

١٢٨٥ م.

- أمه " أشلون خاتون " ابنة الأمير المغولي " سكناي بن قراجين بن جيغان " ، الذي وفد إلى مصر مع أخيه " قرمشي بن قراجين " في صيف سنة ٦٧٥ هـ / ١٢٧٦، في أيام السلطان الظاهر بيبرس ، وقد تزوجها السلطان قلاوون في عام ٦٨٠ هـ بعد وفاة أبيها وأنجب منها آخر أبنائه ناصر الدين محمد، وكانت زوجته الوحيدة في يوم وفاته.
- نشأ الناصر محمد في قلعة الجبل، مقر السلاطين بالقاهرة، محاطاً بالأمراء والنبلاء وأرباب الدولة، فهو ابن السلطان المنصور، وأخو السلطان الأشرف، وأمه بنت أمير من أمراء المغول. تلك البيئة التي نشأ فيها الناصر كانت لها أثراً على شخصيته وطباعه بعدما كبر، حيث توسع في الإنفاق على البنايات الفخمة والمشاريع الحيوية، كما استهواه الغزو والفتح[١] .
- بعد اغتيال الأشرف خليل في ديسمبر ١٢٩٣م اتفق الأمراء على تنصيب أخيه الصغير ناصر الدين محمد ،وعلى إخفاء نبأ الاغتيال لبعض الوقت إلى أن تستقر الأمور.
- أحضر الأمراء الناصر محمد ،وكان في التاسعة من عمره ،ونصبوه سلطاناً على البلاد ومعه الأمير زين الدين كتبغا نائباً للسلطنة والأمير سنجر الشجاعي وزيراً ومدبراً للدولة ،وبيبرس الجاشنكير أستادارا*.
- أصبح السلطان الصغير مجرد دمية في أيدي الحاكمين الفعليين للبلاد كتبغا والشجاعي .
- لكن كتبغا، وهو مغولي الأصل، والشجاعي كانا في واقع الأمر غريمان متنافسان، وراحت علاقتهما ببعضهما البعض تزداد سوءًا وتدهوراً مع مرور الأيام وتطور الأحداث، فالشجاعي لما رأى انه قد صار مهيمناً على أمور الدولة في وجود طفل على تخت الملك، روادته نفسه على السلطنة ، فراح يرمي الفتن بين الأمراء وكتبغا، وصار يغدق على المماليك البرجية ويغريهم بقتل الأمراء والنيل من كتبغا.
- فلما علم كتبغا بمخطط الشجاعي جمع بني جلدته من المغول المقيمين بالقاهرة والأكراد الشهرزورية وحاصر القلعة وقطع عنها الماء .
- نشب نزاع دموى بين فريق الشجاعي وفريق كتبغا، انتهى بهزيمة الأمير الشجاعي بعد أن أكد كتبغا لأم السلطان الناصر وهي تحدثه من فوق السور، أن الصراع الدائر هو نزاع بينه وبين الشجاعي وليس بينه وبين ابنها الملك الناصر.
- وبدأ مماليك الشجاعى يفرون منه وينضمون لفريق كتبغا. طلب الشجاعى الأمان من كتبغا فلم يعطه، فذهب إلى القلعة لإيجاد حل للنزاع الدائر ولكنه قُتل عند دخوله القلعة. أو بعد خروجه من عند السلطان الصغير .
- بعد مقتل الشجاعي فتحت أبواب القلعة ودخل كتبغا وأمراءه وأطلقوا سراح أتباعهم الذين كان الشجاعي قد أسرهم وقت النزاع أو قبض عليهم من قبل. وأبعد كتبغا المماليك البرجية التي آزرت الشجاعي ، وكان بيبرس الجاشنكير من ضمنهم.
- فجأة ظهر في القاهرة حسام الدين لاجين الذي فر واختفى مع الأمير قرا سنقر بعد اشتراكهما في قتل السلطان الأشرف. ثارت المماليك البرجية، وهي مماليك الأشرف خليل التي أبعدها كتبغا من القلعة، وخرجت إلى الشوارع هائجة تطالب بمعاقبة حسام الدين لاجين على اشتراكه في قتل أستاذهم. وانتهى الأمر بالقبض على المماليك الأشرفيه الغاضبة ومعاقبتها بالسجن والإعدام.
- بمقتل الشجاعي وإخماد ثورة الأشرفية توطد وقوي مركز كتبغا فأصبح الحاكم الفعلي للبلاد بلا منازع. وأقنعه لاجين بضرورة إزاحة السلطان الناصر والاستيلاء على العرش قبل أن يقوم مماليك الأشرف، أو الناصر ذاته بعد أن يكبر، بالإنتقام منه.
- جمع كتبغا الأمراء في دار النيابة وقال لهم: " قد انخرق ناموس المملكة، والحرمة لا تتم بسلطنة الناصر لصغر سنه " فوافقه الأمراء وحلفوا له، فتسلطن بلقب الملك العادل كتبغا ومعه حسام الدين لاجين نائباً للسلطنة، وأبعد الناصر محمد مع أمه إلى إحدى قاعات القلعة، منهياً بذلك فترة حكمه الأولى التي لم يفعل فيها شيئاً يذكره التاريخ سوى الجلوس على تخت السلطنة وبلوغه سن العاشرة. ثم قام حسام الدين لاجين بعد أن تسلطن بإبعاده إلى الكرك.
- حكم العادل كتبغا البلاد نحو سنتين ثم اضطر في عام ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م للفرار إلى

---

[١]) مهدي، شفيق، (د) : ***مماليك مصر والشام***، الدار العربية للموسوعات، بيروت ٢٠٠٨، ص ٩٨.

*استادار : المشرف على أمر البيوت السلطانية كلها من المطبخ ومخزن الشراب (الشراب خاناة) والحاشية والغلمان وكان يخدم السلطان في أوقات سفره، وهو المتكفل الأول بنفقات وكساوى السلطان وهو المسئول عن الجاشنيكيرية (ذواقى الطعام السلطانى) وان كان كبيرهم يتساوى معه في مرتبة الإمارة.

دمشق والتنحي بعدما حاول الأمراء، وعلى رأسهم نائب السلطنة حسام الدين لاجين، قتله في دهليزه أثناء عودته إلى مصر من الشام[1].

- ونصب لاجين سلطاناً وأبعد الناصر محمد إلى الكرك واشترط الناصر عليه أن لا يقتله فتعاهدا وغادر الناصر مصر إلى الكرك . وفي عام ٦٩٨ هـ / ١٢٩٩ م قتل لاجين ونائب سلطنته منكوتمر بعد حكم دام نحو سنتين وشهرين.
- بعد مصرع لاجين اجتمع الأمراء، ومعهم الأمير بيبرس الجاشنكير، واتفقوا على إعادة الناصر محمد من الكرك وتنصيبه من جديد سلطاناً على البلاد ومعه الأمير طغجي نائباً للسلطنة. إلا أن الأمير كرجي (قاتل لاجين) عاد بعد يوم وأعترض على إحضار الناصر محمد قائلاً للأمراء :" يا أمراء أنا الذي قتلت السلطان لاجين وأخذت ثأر أستاذي (أي الأشرف خليل)، والملك الناصر صغير ما يصلح، ولا يكون السلطان إلا هذا - وأشار لطغجي - وأنا أكون نائبه، ومن خالف فدونه ". فأيدته المماليك والأمراء الأشرفيه (البرجية)، بينما قرر الأمراء الذين يؤيدون إعادة الناصر انتظار عودة الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح إلى مصر.
- في غضون ذلك كان أميران قد وصلا إلى الكرك وأخبرا الملك الناصر وأمه بأنه قد تقرر إعادة الناصر إلى منصب السلطنة، وتبع ذلك وصول البريد من مصر يستحث الناصر على الحضور، ففرح الناصر وأمه وقررا المسير إلى مصر.
- في ٤ جمادى الأولى ٦٩٨ هـ دخل الناصر القاهرة، وكان عمره حينذاك أربعة عشر عاماً، واحتشد الناس لاستقباله في فرحة عارمة واحتفلوا بعودته. جددت البيعة للناصر فصار سلطان البلاد للمرة الثانية ومعه الأمير سيف الدين سلار نائباً للسلطنة، وبيبرس الجاشنكير أستادراً.
- كما حدث للناصر في سلطنته الأولى تكرر في سلطنته الثانية. أصبح دمية في أيدي سلار وبيبرس الجاشنكير اللذان صارا الحاكمان الفعليان للبلاد.
- تزعم بيبرس الجاشنكير، وكان شركسي الأصل، المماليك البرجية. وتزعم سلار، وكان أويراتي من المغول الوافدية، المماليك الصالحية والمماليك المنصورية. أما المماليك الأشرفية فقد تزعمها الأمير برلغى. كان بيبرس الجاشنكير بمماليكه البرجية أقوى الأطراف، وراح سلار وبرلغى يتنافسان معه على المفاسد وجمع الأموال عن طريق فرض مكوس كانت تعرف باسم " الحمايات ". وهي إتاوة أو رشوة كان الأمراء يفرضونها على الأفراد والتجار في مقابل حمايتهم وتقديم العون لهم في منازعاتهم.[2]
- في سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م سير الناصر جنوده من القاهرة إلى كليكيا الأرمنية تحت قيادة الأمير بدر الدين بكتاش وانضمت إليهم قوات في الشام، فهاجموا الأرمن وحرقوا مزارعهم وأسروا منهم أعداداً، ثم حاصروا قلعة تل حمدون التي تحصن فيها الأرمن وسلمت إليهم بالأمان. في نفس السنة نقل السلطان الناصر أمه من التربة المجاورة للمشهد النفيسي إلى التربة الناصرية بمدرسته التي أكمل بنائها وأضاف مئذنتها في سنة ١٣٠٣م. وأنجبت له زوجته أردكين الأشرفية ولدا سماه علياً، ولقبه بالملك المنصور[3]. ووفد إلى القاهرة نحو مائتي فارس مغولي بنسائهم وأولادهم، وكان من ضمنهم عدة من أقارب غازان وأم الأمير سلار. فأكرمهم الناصر وأنعم عليهم ببيوت للإقامة وإقطاعات. ثم قدم رسل المغول بكتاب وهدية من محمد خدابنده (أولجايتو)الذي جلس على عرش المغول بعد وفاة أخيه محمود غازان. وخاطب الناصر بالأخوة وطلب الصلح وإخماد الفتن وقال في آخر كلامه: " عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه ". فوافق الناصر وأكرم رسله وأرسل إليه هدية.
- في سنة ٧٠٨ هـ / ١٣٠٩ م أحس الناصر أنه غير قادر على مواجهة سيطرة سلار وبيبرس الجاشنكير عليه وعلى أمور الدولة، فاخبرهما بأنه ذاهب إلى مكة للحج. ولكنه بدلاً من الذهاب إلى مكة ذهب إلى الكرك[4] وبقي هناك. لم يقصد الناصر برحيله إلى الكرك التنازل عن العرش، لكنه كان يدرك انه لن يتمكن من الحكم كما يحلو له مادام بيبرس وسلار يسيطران على حياته وعلى شئون الدولة. كما كان يدرك أنهما آجلاً أو عاجلاً سيسعيان للتخلص منه إما بالخلع أو بالقتل. فكانت خطته أن يبتعد عن مصر

---

[1] http://www.marefa.org/index.php

[2] المقريزي : ***السلوك لمعرفة دول الملوك***، دار الكتب، القاهرة ١٩٩٦، الجزء الثاني ، ص ٣١٣.

[3] المقريزي :المرجع السابق، الجزء الثاني ، ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠، ٣٧١ .

[4] ابن إياس : ***بدائع الزهور في وقائع الدهور***، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٧، ص ٤٢٠ ،٤٢١.

وعن عيونهما لبعض الوقت فيتمكن بذلك من الاتصال، بحرية وبدون مراقبة، بأمراء الشام ومؤيديه من أمراء مصر حتى يتمكن بمساعدتهم من التخلص منهما وفرض سيطرته على نفسه وعلى مملكته. كانت حسبة الناصر صحيحة وتمكن من تنفيذ خطته بنجاح فيما بعد.

- عندما رفض الناصر محمد العودة إلى مصر قائلاً أن الكرك: " من بعض قلاعي وملكي، وقد عولت على الإقامة بها "، عرض الأمراء السلطنة على الأمير سلار فقال لهم : " والله يا أمراء أنا ما أصلح للملك، ولا يصلح له الا أخي هذا "، وأشار إلى بيبرس الجاشنكير فهتف البرجية: " صدق الأمير ". فوافق الأمراء ونصب بيبرس سلطاناً على البلاد بلقب الملك المظفر ومعه الأمير سلار نائباً للسلطنه [1] وأقام " بيبرس الجاشنكير " الناصر محمد على نيابة الكرك وكتب إليه قائلاً : " أني أجبت سؤالك فيما اخترته، وقد حكم الأمراء علي فلم تمكن مخالفتهم، وأنا نائبك " .
- كانت مدة الملك الناصر في السلطنة الثانية، عشر سنين وأياماً.
- كان وجود الملك الناصر في الكرك وتحركاته تقلق السلطان بيبرس الجاشنكير. فتحجج بحاجته للمال، بسبب إمكانية مهاجمة خربندا ملك المغول للشام، وطلب منه إرسال كل الأموال والخيول التي أخذها معه من مصر وكل الأموال التي استولى عليها من حاصل الكرك بالإضافة إلى كافة المماليك باستثناء عشرة مماليك لخدمته. وهدده بأنه إن لم يفعل ذلك " خرجت إليه العساكر حتى تخرب الكرك عليه ". فأرسل الناصر إليه نصف المال المطلوب مع رسالة شفهية تعتذر عن عدم إمكانية إرسال كل المطلوب فقنع بيبرس الجاشنكير بذلك.
- إلا أن الأمور لم تستقم لبيبرس الجاشنكير الذي لم يكن محبوبا عند المصريين بسبب سوء الأحوال الاقتصادية والسياسية في البلاد، ففي عهده عم الوباء وانخفض منسوب مياه النيل وارتفعت الأسعار، فراح الناس يطالبون بعودة الناصر محمد ويهزؤون من بيبرس ونائبه سلار ويغنون : " سلطاننا ركين ونائبنا دقين، يجينا الماء منين. جيبوا لنا الأعرج، يجي الما ويدحرج"*[2].
- مع مرور الوقت زاد اضطراب بيبرس الجاشنكير وأصبح أمر الملك الناصر يؤرقه وينغص عليه، فنصحه أمراءه بالقبض عليه، إلا أنه خشى عاقبة إقدامه على فعل ذلك، لكنه أرسل إليه الأمير مغلطاي ليأخذ منه الخيل والمماليك، فغضب الملك الناصر وقال له : " أنا خليت ملك مصر والشام لبيبرس، وما يكفيه حتى ضاقت عينه على فرس عندي أو مملوك لي، ويكرر الطلب ؟ ارجع إليه، وقل له والله لئن لم يتركني وإلا دخلت بلاد التتر، وأعلمتهم أني قد تركت ملك أبي وأخي وملكي لمملوكي، وهو يتبعني ويطلب مني ما أخذته". فلما رد عليه مغلطاي بقلة احترام صاح به : " ويلك! وصلنا إلى هنا؟" وأمر بجره ورميه من سور القلعة، لكنه عفا عنه واكتفى بحبسه بعد أن شفع فيه الأمير أرغون الدوادار، ثم طرده. كتب الناصر رسائل إلى بعض نواب الشام ومؤيديه من أمراء مصر يستعطفهم ويثيرهم على بيبرس الجاشنكير. فشرح لهم أنه ترك مصر بسبب ضيق اليد والتدخل في شئونه. وأن الملك المظفر يضايقه من حين لأخر بمطالبته بالمال والخيل والمماليك. وقال لهم: " أنتم مماليك أبي وربيتموني. فإما تردوه عني إلا أسير إلى بلاد التتار". وتعاطف بعض الأمراء مع الناصر محمد وأعلنوا عن تأييدهم له. وأرسل الأمير بهادرآص من دمشق إلى بيبرس يعلمه أن نواب الشام قد مالوا إلى الناصر وأن عليه الخروج إلى الشام. فأجاب بيبرس بأنه لا يخرج لأنه يكره الفتنة وسفك الدماء وأن الخليفة قد كتب بولايته وعزل الملك الناصر، فإما أن يرضى النواب بذلك أو يتنحى.
- دخل الملك الناصر دمشق في شهر شعبان بتأييد غالبية الأمراء وزينت الشوارع وفرح الناس بقدومه وكثر الدعاء له. وفي يوم الجمعة ١٢ شعبان احتشد الناس في الميدان للصلاة وخطب له. فلما وصلت الأنباء إلى القاهرة استدعى بيبرس الجاشنكير كل الأمراء واستشارهم، فنصحه بيبرس الدوادار وبهادرآص بخلع نفسه والذهاب إلى الناصر ليستعطفه. فوافق وأرسل بيبرس الدوادار إلى الناصر، لكنه أصيب باضطراب

---

[1] الشيال ، جمال الدين: ***تاريخ مصر الإسلامية***، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٦،ص١٨٣.

[2] المقريزي :المرجع السابق ،الجزء الثاني ،ص ٤٣١.

*ركين ودقين كان الناس يقصدون بيبرس (ركن الدين)، وسلار لقلة عدد شعرات لحيته، أما بالأعرج فكانوا يعنون الناصر محمد لأن كان به عرج خفيف.

في آخر النهار فدخل الخزائن وأخذ ما استطاع من المال والخيل والهجن وفر مع مماليكه فلحقت بهم العامة وراحت تسبهم وتلقيهم بالحجارة إلى أن تمكنوا من الفرار. وفي صباح اليوم التالي أمر سلار حراس قلعة الجبل بالهتاف باسم الملك الناصر، وفي يوم الجمعة خطب على منابر مصر باسمه وأسقط اسم الملك المظفر.

- في أول أيام شهر شوال وصل الناصر إلى القاهرة وصلى صلاة العيد بالدهليز، وفي اليوم التالي جلس على تخت الملك للمرة الثالثة. في فترة حكمه الأولى كان الناصر دمية في أيدى العادل كتبغا والشجاعي وفي الفترة الثانية، مع أنه كبر وأصبحت له أعمال يعتز بها، إلا أنه عاش محجوراً عليه عن طريق بيبرس الجاشنكير وسلار اللذان كانا يمارسان السلطان الفعلي ويتحكمان في معاشه. أما هذه المرة فقد عاد إلى مصر وقد جاوز سن الطفولة وأصبح في الخامسة والعشرين، وقد صقلته الأحداث وحنكته التجارب[1]. عاد الناصر إلى تخت السلطنة هذه المرة عازماً على الانتقام لنفسه ممن أساءوا إليه ومصمماً على ألا يترك أحداً يستصغره أو يتآمر عليه.
- بدأ الناصر ولايته الثالثة بالقبض على عدد من الأمراء وحبسهم بالإسكندرية، وأفرج عن بعض المساجين والأمراء، كان من ضمنهم شيخ الإسلام ابن تيمية والأقوش المنصوري قاتل سنجر الشجاعي. كما جرد عدداً من الأمراء إلى دمشق، وأمر اثنين وثلاثين من مماليكه. ثم بدأ يجهز للانتقام من بيبرس الجاشنكير وسلار.
- طلب بيبرس الجاشنكير الأمان من الناصر، ورد الأموال التي كان قد نهبها قبل فراره من القلعة، وقد سلمها بيبرس الدوادار إلى الملك الناصر[2]. إلا أن الناصر أمر بالقبض عليه. رفض بيبرس مقاتلة الرجال الذين أرسلهم الناصر للقبض عليه وقام بتسليم نفسه عند غزة للأمير أسندمر كرجي، فقام بنقله مقيداً إلى الناصر في قلعة الجبل. فلما مثل بين يدي الناصر عنفه الناصر وراح يذكره بما فعل به، وبعد أن عدد له اساءاته ختم كلامه قائلاً: " ويلك وزدت في أمري حتى منعتني شهوة نفسي ". فقال بيبرس : " يا مولانا السلطان كل ما قلت فعلته، ولم تبق إلا مراحم السلطان ". فقال له الناصر: " يا ركن الدين أنا اليوم أستاذك "، وأمر بإعدامه فخنق ودفن خلف القلعة[3].

- أما سلار فقد طلب من الناصر محمد أن يعفيه من نيابة السلطنة وأن يعينه حاكماً على الشوبك، فاستجاب الناصر مؤقتاً، وعين الأمير بكتمر نائباً للسلطنة بدلاً منه، وسافر سلار إلى الشوبك وظن أن الناصر قد عفا عنه. إلا أن بعد مرور بعض الوقت، استدعاه الناصر إلى القاهرة وأمر بحبسه وصودرت أملاكه وممتلكاته، وكان سلار من أغنى الأمراء محباً لجمع المال، فقد بلغت ثروته المصادرة أكثر من خمسين حملاً من الذهب والفضة والجواهر واللجم المفضضة والأقمشة المزركشة وغير ذلك. ومات سلار بالسجن ودفن في التربة التي كان قد أنشأها بالقرب من جامع ابن طولون[4].
- في عام ١٣١٠ تآمر نائب السلطنة بكتمر الجوكندار والأمير بتخاص المنصوري مع المماليك المظفرية على الإطاحة بالناصر محمد وتنصيب الأمير موسى بن الصالح علي بن السلطان قلاوون سلطاناً على البلاد. وقد وافق موسى على الخطة ولكن المؤامرة وصلت إلى علم الناصر محمد بعد أن وشى بهم بيبرس الجمدار أحد المماليك المظفرية، وقبض على موسى وبتخاص ، وأمهل بكتمر الجكندار سنة ثم قبض عليه بتهمة محاولة الاستيلاء على الحكم، وأحل محله الأمير بيبرس الدوادار في نيابة السلطنة.

- باع الناصر محمد وخبرته الطويلة مع الأمراء وألاعيبهم جعلته دائماً متيقظ ومترقب وشاك في كل صغيرة وكبيرة تصدر عنهم أو عن غيرهم، فكان إذا رأى بادرة خروج أو تمرد قضى عليها في الحال ، لدرجة أنه في عام ٧٣٨ هـ م / ١٣٣٨ م نفى الخليفة " المستكفي با لله "* ذاته إلى قوص بحجة استخدامه عبارة " يحضر أو يوكل " (أي الناصر) في مستند دعوى شرعية أقامها شخص ضد الناصر وكان الناصر لا يحب هذا الخليفة لمساندته لبيبرس الجاشنكير وتقليده السلطنة من قبل. ويذكر المقريزي أن الناصر :" كان فيه تؤدة، فإذا غضب على أحد من أمرائه أو كتابة أسر ذلك في نفسه، وتروى فيه مدة طويلة، وهو ينتظر له ذنباً يأخذه"[5].

المماليك البرجية أو الجراكسة (٧٨٤-٩٢٣ هـ/ ١٣٨٢-١٥١٧م) :

---

[1]) الشيال ، جمال الدين: ***تاريخ مصر الإسلامية***، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٦،ص١٨٤،١٨٣.
[2]) المقريزي :المرجع السابق ،ص ٤٤٦،٤٤٥.
[3]) المقريزي :المرجع السابق ،ص ٤٤٩.
[4]) مهدي، شفيق، (د) : ***مماليك مصر والشام***، الدار العربية للموسوعات، بيروت ٢٠٠٨، ص ١٠٨.
* الخليفة " المستكفي بالله، هو سليمان بن أحمد بن علي، أبو الربيع الخليفة المستكفي بالله، بن الحاكم بأمر الله، من خلفاء الدولة العباسية الثانية بمصر. ولد ببغداد وخطب له بمصر بعد وفاة أبيه سنة ٧٠١ هـ بعهد منه. دامت خلافته نحو تسعة وثلاثين سنة وتوفى بقوص في ٥ شعبان ٦٤٠ هـ عن نحو ست وخمسين سنة .
[5]) المقريزي :المرجع السابق ،الجزء الثالث ، ص ٢١٧.

الظاهر سيف الدين برقوق	▪ أول سلاطين المماليك الجراكسة . ▪ تولى الحكم مرتان: ▪ ٧٨٤-٧٩١هـ/١٣٨٢-١٣٨٩م. ▪ ٧٩٨-٨٠٨هـ/١٣٨٩ - ١٣٩٩م.
الناصر ناصر الدين فرج	▪ حكم ٨٠١-٨٠٨ هـ / ١٣٩٩-١٤٠٥ م ▪ ابن برقوق ، تولى الحكم في العاشرة من عمره واستمر فيه لمدة سبع سنوات .
المنصور عز الدين عبد العزيز	▪ حكم ٨٠٨-٨٠٩ هـ / ١٤٠٥-١٤٠٦ م ▪ ابن برقوق
الناصر ناصر الدين فرج	▪ فترة حكمه الثانية ٨٠٩-٨١٥ هـ / ١٤٠٦-١٤١٢ م
العادل المستعين بالله أبو الفضل العباس	▪ حكم ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م
المؤيد سيف الدين شيخ	▪ حكم ٨١٥- ٨٤٢ هـ / ١٤٢١-١٤٢١ م
المظفر شهاب الدين أحمد	▪ حكم ٨٢١ هـ / ١٤٢٢ م ▪ ابن المؤيد شيخ
الظاهر سيف الدين ططر	▪ حكم ٨٢١ هـ / ١٤٢٢ م
الصالح ناصر الدين محمد	▪ حكم ٨٢١ هـ / ١٤٢٤ م ▪ ابن ططر
الأشرف سيف الدين برسباي	▪ حكم ٨٢٥-٨٤٢ هـ / ١٤٢٢-١٤٣٨ م ▪ غزا جزيرة قبرص واستولى على مدينة نيقوسيا العاصمة عام ٨٢٦ هـ / ١٤٣٠ م
الظاهر سيف الدين جقمق	▪ حكم ٨٤٢-٨٥٧ هـ / ١٤٣٣-١٤٥٣ م ▪ تم غزو جزيرة رودس أثناء حكمه وعقد هدنة مع فرسان الإسبتالية (فرسان القديس يوحنا) المتمركزين في رودس[1] .
المنصور فخر الدين عثمان	▪ حكم ٨٥٣ هـ / ١٤٥٧ م ▪ ابن جقمق
الأشرف سيف الدين إينال	▪ حكم ٨٥٧-٨٦٥ هـ / ١٤٥٣-١٤٦١ م
المؤيد شهاب الدين أحمد	▪ حكم ٨٦١ هـ / ١٤٦٥ م ▪ ابن أينال .
الظاهر سيف الدين خوشقدم الأحمدي	▪ حكم ٨٦٥-٨٧٢ هـ / ١٤٦١-١٤٦٧ م ▪ كان يوناني الأصل على خلاف باقي السلاطين الذين كانوا من أصل جركسى
الظاهر سيف الدين يلباى	▪ حكم ٨٦٧ هـ / ١٤٧٢ م
الظاهر تمربغا	▪ حكم ٨٦٧ هـ / ١٤٧٢ م ▪ كان يوناني الأصل وحكم لبضعة شهور فقط .
الأشرف سيف الدين قايتباي	▪ حكم ٨٧٢-٩٠١ هـ / ١٤٦٨-١٤٩٦ م ▪ تعتبر فترة حكمه الطويلة (٢٩ عاما) أمرا شاذا في هذه الفترة والتي كان يجرى فيها تغيير السلاطين بسرعة كبيرة . وقد أنشأ الكثير من العمائر بالقاهرة والأقاليم المصرية والشام وبلاد الحجاز ، وكانت تتميز برشاقة البناء ودقة جمال الزخارف
الناصر ناصر الدين محمد	▪ حكم ٩٠١-٩٠٤ هـ / ١٤٩٦-١٤٩٨ م ▪ ابن قايتباى
الظاهر قنصوه أبو سعيد	▪ حكم ٩٠٤-٩٠٥ هـ / ١٤٩٨-١٤٩٩ م
الأشرف جانبلاط	▪ حكم ٩-٥-٩٠٦ هـ / ١٤٩٩-١٥٠٠ م
العادل سيف الدين طومباى	▪ حكم ٩٠٦ هـ / ١٥٠١ م
الأشرف قنصوه الغوري	▪ حكم ٩٠٦-٩٢٢ هـ / ١٥٠٠-١٥١٦ م ▪ كان مغرما بالعمارة والفنون وقد قتل في موقعة مرج دابق شمال مدينة حلب عام ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م أثناء حربه ضد السلطان سليم الأول العثماني وسقط وهو يحارب وسنه ٧٦ عاما .
الأشرف طومان باي	▪ حكم ٩٢٢-٩٢٣ هـ / ١٥١٦-١٥١٧ م[2] آخر سلاطين الدولة المملوكية وقد حكم ثلاثة شهور فقط ثم تم إعدامه شنقا على باب زويلة بأمر من السلطان سليم الأول العثمانى عند دخوله مصر[3] .

دولة المماليك الجراكسة : (الإطار التاريخي)

[1]) El-Bahnasi, Salah -Selim, Enaam: ***Mamluk Art : The Splendour and Magic of the Sultans*** , Publisher: Museum With No Frontiers, MWNF (Museum Ohne Grenzen) ,P:222.

[2])http://ar.wikipedia.org/

[3]) El-Bahnasi, Salah -Selim, Enaam: Mamluk Art : ***The Splendour and Magic of the Sultans*** , Publisher: Museum With No Frontiers, MWNF (Museum Ohne Grenzen) ,P:223.

تمهيد :

لم تكن الدولة المملوكية الثانية سوى امتداد للدولة المملوكية الأولى من حيث الخصائص الحضارية والاتجاهات الاقتصادية والتنظيمات الإدارية فقد استطاع الظاهر سيف الدين برقوق انتزاع الحكم من آخر سلاله الناصر محمد بن قلاوون وفي عام ٧٨٤هـ/١٣٨٢م وتأسيس دولة المماليك البرجية نسبة إلى تربيتهم في أبراج قلعة الجبل كما يعرفون بالمماليك الجراكسة نسبة إلى جنسهم وكان قلاوون أول من كوَن فريق المماليك المتمركز في أبراج قلعة القاهرة . وبرغم أن نظام تولي الحكم في الدولة المملوكية الثانية كان يعتمد على الوصاية (معظم خلفاء برقوق كانوا من مماليكه أو مماليك مماليكه)إلا أن برقوق نجح في تنصيب أبنه خلفا مباشرا له كما تولى العرش أبن ثان له ولكن لمدة لا تزيد على العام وفيما عدا الناصر محمد ابن قايتباي الذي احتفظ بالعرش لما يقرب من العامين لم يستمر أي من أبناء السلاطين في الحكم أكثر من بضعة أشهر قليلة ومن ثم تخلى المماليك عن مبدأ توريث الحكم.

واجهت دولة المماليك البرجية مثل سابقتها الخطر المغولي ممثلا في الدولة التيمورية التي أرسلت تهديدا للسلطان برقوق إلا أنه قتل السفراء وأخذ يستعد لملاقاة الجيش التيمورى فقام بخفض الضرائب كسبا لحب الشعب وتأييده في حملته ضد المغول ويؤكد ذلك المرسوم الموجود على يسار الداخل إلى جامع القنائي بمدينة فوه الذي ينص على إبطال بعض المكوس (الضرائب).

يمثل عصر السلطان "برسباي" الذي تولى السلطنة عام ٨٢٥هـ/١٤٢١م مرحلة من الاستقرار والسيادة المصرية على نطاق واسع في البحر المتوسط حيث تمكن من فتح قبرص عام ٨٢٩هـ/١٤٢٦م . وسيق ملكها "جانوس" أسير إلى القاهرة . كما بسطت الدولة المملوكية سيادتها على ميناء جدة وموانئ البحر الأحمر . وتحقيقا لسياسة احتكار التجارة الداخلية والخارجية التي بدأها السلطان برسباي فقد أعاد حفر خليج الاسكندرية حتى يساعد على تحقيق هذه الغاية وإذا كانت هذه السياسة قد أضرت بمصالح الشعب المصري إلا أنها وفرت للسلطان النفقات الخاصة بالمماليك تجنبا لثوراتهم ولإعدادهم لحماية البلاد.

سار السلطان جقمق ٨٤٢هـ/١٤٣٨م على سياسة برسباي في تأديب قراصنة البحار لتأمين التجارة في البحر المتوسط إلا إنه لم ينجح في غزو جزيرة رودس التي كانت مقرا لجماعة فرسان الهيكل أو فرسان القديس يوحنا ولكنه نجح في مهادنتهم وعقد معاهدة معهم. وحقق السلطان إينال ٨٥٧هـ / ١٤٥٣ م إنجازا سياسيا تمثل في مهادنة السلطان العثماني وأرسل وفدا لتهنئة السلطان محمد الفاتح بفتح القسطنطينية إلا أن العلاقة بين العثمانيين والمماليك أصبحت غاية في السوء في عهد السلطان خوشقدم الأحمدي ٨٦٥هـ/١٤٦١م الذي كان ينتمي إلى أصل يوناني بخلاف المماليك الجراكسة .

شهدت مصر فترة من القوة بتولي السلطان قايتباي حكمها سنه ٨٧٢هـ/١٤٦٨م إذ كانت مصر دولة مهابة الجانب يسعى ملوك العالم لعقد الاتفاقيات معها نظرا لما استطاع السلطان قايتباي تحقيقه من انتصارات بالإضافة إلى استقرار الأحوال الداخلية لمصر الذي ينعكس بوضوح في مجموعة المنشآت التي خلفها قايتباي وأمراؤه ومن أهمها تحصين السواحل المصرية مثل قلعة الإسكندرية وبرج رشيد ومجموعة المنشآت التجارية ومنها وكالته بجوار باب النصر ووكالته خلف الجامع الأزهر بالإضافة إلى ما شيده من المساجد ومنها مسجده بقرافة المماليك والمنشآت الخيرية مثل السبيل والكتاب بشارع الصليبه بالقاهرة بالإضافة إلى منشأته بالشام وقد تميزت منشأته برشاقتها وتجانس عناصرها.

وإذا كانت مصر قد شهدت فترة من الاضطرابات بعد قايتباي فإن الأمور عادت إلى ما كانت عليه بتولي السلطان قنصوه الغوري عام٩٠٦هـ /١٥٠١م الذي سار على النهج نفسه فاهتم بتحصين السواحل مثل ترميم قلعة قايتباي بالإسكندرية وترميم أسوار[1] مدينة رشيد كما اهتم بإنشاء العمائر ومن أهمها مسجد ومدرسة وسبيل وخانقاه ومنزل ووكالة الغوري بالحي الذي سُمىَ باسمه بمدينة القاهرة .

ولكن الأوضاع السياسية والاقتصادية تأثرت تأثرا شديدا باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وازدياد أطماع البرتغاليين في الشرق بعد وصولهم إلى الهند . بالإضافة إلى تحول أطماع الدولة العثمانية في اتجاه الشرق وانتهى الأمر بهزيمة المماليك في موقعة مرج دابق عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م التي تعرض له من خيانة خاير بك حاكم حلب وجان

[1]) El-Bahnasi, Salah -Selim, Enaam: Mamluk Art : ***The Splendour and Magic of the Sultans*** , Publisher: Museum With No Frontiers, MWNF (Museum Ohne Grenzen) ,pp:45,46

بردي الغزالي . وقد حاول الأشرف طومان باي استكمال مسيرة الغوري ولكنه وقع في قبضة العثمانيين نتيجة للخيانة أيضا وشنق على باب زويلة وانتهت بذلك دولة المماليك بمصر والشام .[1]

.. ذكر ابتداء دولة المماليك الجراكسة وملكهم .. لمحات تاريخية لأهم سلاطين دولة المماليك الجراكسة ..

١/١ الظاهر سيف الدين برقوق .

- السلطان الملك الظاهر سيف الدين برقوق بن أنس بن عبد الله الشركسي، وُلد في شمال القفقاس عام ٧٤٠هـ/١٣٤٠م وقدم للقاهرة وعمره ٢٠عاما ليلتحق بالجيش المصري حيث أتقن فنون الحرب والفروسية، وترقّى في المناصب العسكرية ورُتب الإمارة حيث أصبح أمير طبلخانه، ثم أمير آخور ثم أتابكا عام ٧٧٩هـ[2].
- عمل على جمع شمل الأمراء الشراكسة وتعزيز مواقعهم فلما نشِب النزاع بينه وبين الأمير بركه هزمه وقبض عليه وحبسه. عُيّن مُشاركا في تدبير أمور الدولة(أي وصيا على العرش) بعد وفاة السلطان علي بن شعبان وتولية ابنه الطفل الصالح حاجي سلطانا عام ١٣٨١م.
- استجاب لإلحاح الأمراء ورغبتهم في تنصيبه سلطانا فعليا عليهم بدلا من السلطان الأسمي الصغير فوافق على ذلك وبويع سلطانا على مصر في ١٩رمضان ٧٨٤ هـ / ١٦نوفمبر ١٣٨٢م ولُقّب بالملك الظاهر سيف الدين برقوق فكان بذلك مؤسس دولة السلطنة الشركسية في مصر (البُرجيّن أو المماليك البرجية) بمصر والتي استمرت حتى عام١٥١٧م.
- جرت عدة محاولات لعزله، واستطاع أعداؤه في عام ٧٩١هـ / ١٣٩١م هزيمته، ونفيه وسجنه في قلعة الكرك في الأردن، لكنه استطاع بمساعدة أصدقائه تحرير نفسه والهرب من سجنه وهزيمة مناوئيه والعودة إلى عرش السلطنة ثانية في عام ٧٩٢ هـ /١٣٩٢م.
- نجح في عقد عدة معاهدات مع العثمانيين والقفجاق وسيواس ضد الخطر المغولي الزاحف.
- توفي يوم الجمعة ١٥شوال ٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م وعمره ٦٠ عاما، وقد بكاه الناس لعدله ورفقه برعيته. وكان من مآثره، إبطال الضرائب على الثمار والفواكه، وبناء مدرسة وخانقاه ومدفن الظاهر برقوق وجسر الشريعة على نهر الأردن. كانت الحرب على أشدها في عصره بين تيمور لنك (المغولي) وبايزيد (العثماني) وكان يسعى كلا الطرفين لإرضائه وأن يكسبه في صفه . كان شجاعا ذكيا عارفا بالفروسية ماهرا بلعب الرمح، يحب الفقراء ويتواضع لهم، قيل عنه إنه كان أعظم ملوك الشراكسة بلا منازع.

٢/١ الناصر ناصر الدين فرج.

- الناصر فرج بن برقوق ٨٠١-٨٠٨ هـ / ١٣٩٩-١٤٠٥ م ، وهو الملك الناصر زين الدين أبو "السعادات" ، سلطان مملوكي، أصله من بلاد الجركس الواقعة في المرتفعات الجنوبية من بلاد القبجاق شمالي البحر الأسود، وشمالي بحر قزوين، والعثماني نسبة إلى التاجر عثمان بن مسافر الذي جلب والده برقرق إلى مصر فبيع، ورُبي إلى أن تسلم السلطة وأسس دولة المماليك الجركسية أو البرجية، ثم تسلم أبنه فرج من بعده بوصية منه، إذ ألف السلطان برقوق قبل وفاته مجلساً للوصاية على أبنائه الثلاثة ـ وهم: فرج وعبد العزيز وإبراهيم ـ برئاسة الأمير آيتمش البجاسي، وعضوية عدد من الأمراء، وكلفهم تولية أولاده من بعده، ومعاونتهم في شؤون الحكم[3].
- تولى عرش مصر بعد وفاة والده وعمره ١٣ عاما وتكررت معه مأساة أبيه حيث تنحى عن العرش ثم عاد إليه و سادت الفتن و الاضطرابات في عهده وحدث قحط عام في البلاد مصحوبا بالوباء مما أدى إلى وفاة ثلث السكان .
- الناصر فرج بن برقوق هو السلطان السادس والعشرين ، والجركسي الثالث ، بين سلاطين المماليك. وكانت أمه من الأتراك وتدعى "خوند" شيرين.
- وقد ولد قبيل عزل والده وسجنه في الكرك ؛ ولهذا اعتبر مصدر نحس وسمي بلفاك.
- ولكن السلطان أعيد للحكم فيما بعد ، فسماه فرج. وعين سلطانا يوم وفاة والده في عام ٨٠١ هـ (١٣٩٩م)[4].

---

[1]) موير ، السير وليم : ***تاريخ دولة المماليك في مصر*** ، ترجمة / محمود عابدين وسليم حسن مدبولي ، ١٩٩٥م . ص٤٧.

[2]) http://ar.wikipedia.org/

[3])***الموسوعة العربية " Arab Encyclopedia "*** ،سوريا، دمشق ،٢٠١٢، ص٣٦٤.

[4])http://ar.wikipedia.org/

- ولما توفي برقوق نفذ مجلس الوصاية الشطر الأول من الوصية، فولّوا فرجاً العرش، ولقبوه بالملك الناصر، أما الشطر الثاني للوصية القاضي بمساعدة فرج على استقرار الأمن في الدولة وإدارة شؤون البلاد فقد أخلّوا به في اليوم التالي لوفاة السلطان، إذ تميّز عهد فرج الأول (٨٠١ـ ٨٠٨ هـ/١٣٩٩ـ ١٤٠٥م) بالتنافس بين أمراء المماليك في القاهرة، وانعكس ذلك على أمراء الشام، ونجم عن انقسام الأمراء فيما بينهم انقسام في الجيش، ونتيجة لاشتداد المعارضة في بلاد الشام لم يجد فرج بداً من التوجه إلى هذا البلد على رأس جيش كبير سنة ٨٠٢هـ/١٤٠٠م، وتمكن من السيطرة على مدنه، ثم الدخول إلى دمشق والقضاء على الثورة، وأمر بقطع رؤوس الفتنة، وفي مقدمتهم الأميران تنم وآيتمش، وقيل إنه ذبح في ليلة واحدة أربعة وعشرين أميراً، ثم عاد إلى القاهرة.
- وعلى الرغم من نجاح فرج في إخماد هذه الفتن، إلا أن السنوات الست اللاحقة شهدت قيام انتفاضات تعددت أسبابها، فمنها ما كان صراعاً مملوكياً جركسياً داخلياً للفوز بالمناصب الكبرى، ومنها ما كان صراعاً عنصرياً بين الجراكسة والمماليك التركمان.
- ولما أخفق فرج في القضاء على المتمردين ترك مقر حكمه واختفى، فاتفق الخارجون عليه على تنصيب أخيه عبد العزيز سلطاناً، وذلك سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م، ولكن فرجاً سرعان ما ظهر فجأة بعد غياب دام سبعين يوماً، ودخل القلعة مع أنصاره، وقبض على أخيه وسجنه، وأمسك بزمام الأمور، لكن الانتفاضات استمرت ناشطة ضده حتى نهاية حكمه.
- وما إن وطد الناصر فرج سلطته في بلاد الشام حتى تحرك الخطر المغولي من جديد، فاحتل تيمورلنك مدينة بغداد، ثم استعد للزحف نحو بلاد الشام كما فعل هولاكو قبل أكثر من قرن وثلث القرن، مما عُدّ تهديداً فعلياً للحدود الشمالية في السلطنة المملوكية وللدولة العثمانية الناشئة في آسيا الصغرى، وقد أدرك العثمانيون مدى خطورة الزحف المغولي، فأرسل السلطان بايزيد الأول (٧١٩ـ ٨٠٥هـ) كتاباً للناصر فرج يعرض فيه إقامة حلف عسكري لمواجهة تيمورلنك، فلم يلق أذناً مصغية.
- زحف تيمورلنك نحو بلاد الشام واحتل عينتاب ثم استباح حلب، وتعرضت حماة للمصير نفسه، عندها تحرك الناصر فرج بجيشه نحو بلاد الشام، فوصل غزة، ثم دمشق، فأرسل إليه تيمورلنك يعرض الصلح مقابل تبادل أسيره أطلامش مع الأمراء المماليك الأسدية لديه، فرفض السلطان المملوكي، فتابع تيمورلنك زحفه سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م، فاحتل بعلبك ومن ثم الساحل من بيروت وطرابلس وصيدا.
- ثم ما لبث السلطان فرج أن عاد إلى القاهرة لخوفه من مؤامرة بعض الأمراء الذين انسحبوا خلسة من الجيش، واتجهوا نحو القاهرة، ومعهم ألفا مملوك، وبعد أن قضى فرج على المؤامرة في القاهرة فرض تدابير مالية تحت ستار تجهيز حملة عسكرية للعودة إلى دمشق والدفاع عنها ضد تيمورلنك، أرهقت كاهل الأهالي والتجار، لكنه عدل عن خطته، وارتأى البقاء في القاهرة، وبذلك سنحت الفرصة أمام تيمورلنك ليتجه نحو دمشق سنة ٨٠٣هـ/١٤٠١م، وكان يتولى الدفاع عنها جيش مملوكي قليل العدد ومن دون قائد، يسانده الأهالي بانتظار وصول نجدة السلطان من القاهرة.
- حاول تيمورلنك استغلال هذا الوضع ومهاجمة دمشق، لكنه مُني بالهزيمة أمام صمود الجيش والأهالي، فعمد إلى الحيلة وأظهر رغبته في عقد الصلح، فاضطر الأهالي إلى إرسال وفد يضم القاضي إبراهيم بن مفلح، والمؤرخ الشهير ابن خلدون، والإذعان لشروط تيمورلنك مقابل الصلح، فدخلت جيوشه دمشق، فأخذ يجبي الأموال الطائلة من الأهالي بالضرب والمصادرة، وعندما أيقن من عجزهم نكث عهده وقبض على القاضي ابن مفلح، وانتشر المغول داخل المدينة، واستبيحت دمشق مدة تسعة عشر يوماً، وتعرضت لأبشع كارثة في تاريخها لاتزال إلى اليوم مضرباً للمثل، فاهتز المشرق العربي الإسلامي نتيجة لهذا الخطر المغولي وموقف السلطان فرج بن برقوق الذي أظهر التخاذل والضعف.
- وبعد تدمير دمشق غادرها تيمورلنك بعد أن أقام فيها مدة ثمانين يوماً، وقد اصطحب معه أرباب الصنائع والحرف والفنانين والأطباء حيث استخدمهم في تجميل عاصمته.
- ويبدو أن الثورات ضد فرج لم تهدأ حتى نهاية حكمه، إذ انتفض عليه عدد من أمرائه، فعمد إلى اتباع وسيلة التفرقة بينهم، فاستمال إليه شيخ المحمودي وعينه نائباً على طرابلس، وعزل الأمير نوروز عن نيابة الشام، ومع كل هذه المحاولات لم ينجح فرج في إخماد هذه الفتن والثورات.

- وفي يوم السبت ٢٥ المحرم خلع الخليفة المستعين بالله الملك الناصر فرج من السلطنة، فلم يستقر الأمراء فيما بينهم على من يخلف فرج على عرش السلطنة ولكنهم اتفقوا مبدئياً ، وكإجراء شكلي على اختيار الخليفة العباسي المستعين بالله أبو الفضل سلطاناً على مصر بالإضافة إلى منصب الخلافة إلى أن تستقر الأمور .. وتم بالفعل عزله بعد حوالي خمسة أشهر[١] .
- ثم قبض على الناصر فرج وقُتل، وظلت جثته ثلاثة أيام في العراء قبل أن تدفن في دمشق.[٢]

٣/١ المؤيد سيف الدين شيخ .

- الملك المؤيد أبو النصر شيخ بن عبد الله المحمودي الظاهري (توفى في القاهرة في ١٣ يناير ١٤٢١) ، سادس سلاطين الدولة المملوكية البرجية (الشركسية) في مصر ، تسلطن على عرش مصر سنة ١٤١٢ و سنه حوالى ٤٤ سنة و حكم إلى وقت وفاته في يناير سنة ١٤٢١ م.
- المؤيد شيخ كان من أمراء الظاهر برقوق و كان نائب الدولة في طرابلس في الشام. تلقب بالمحمودي نسبه لأستاذه " محمود شاه " و بالظاهري نسبه لأستاذه " الظاهر برقوق ".
- تميز عهد المؤيد شيخ بانتشار فساد العربان في مصر و مهاجمتهم للقرى و الفلاحين المصريين فتسببوا في حصول أزمة خبز كبيره بسبب نقص توريدات القمح و تدمير المخزون القمحي ويوصف المقريزي ضمن أحداث سنة (٨١٨هـ / ١٤١٥م) أن شهر جمادى الآخرة " أهل والناس من كثرة فساد العربان بنواحي أرض مصر في جهد ".
- و من جهه أخرى انهمك السلطان في حربه ضد المتمردين في سوريا و الشام حيث اصبحوا مصدر استنزاف مستمر لاقتصاد مصر. ووجود المؤيد شيخ في الشام لمواجهة التمرد كان سبب انتشار فساد الأمراء و موظفين الدولة في مصر و انتشرت الرشاوى و عم الفساد الإداري و الظلم. ومن المشاكل الأخرى التي واجهتها مصر في عهد الملك المؤيد انتشار الطاعون في منطقة الشرق الأوسط و وصوله مصر.
- وبالرغم من كل ذلك يعتبر المؤيد شيخ من أكبر سلاطين الدولة المملوكية البرجية و هو السلطان الوحيد بعد الظاهر بيبرس الذي وصل الجيش المصري في عهده للأبلستين في آسيا الصغرى بقيادة ابنه إبراهيم و غلب العثمانيين و فتح مدن و قلاع ضمها لمصر ، و لذلك تلقب الملك المؤيد بسلطان الروم[٣] .
- استمر حكم الملك المؤيد إلى وفاته يوم الأثنين ١٣ يناير سنة ١٤٢١ م بعد ما حكم ثمان سنوات و خمسة أشهر و ست أيام و عنده خمسه و ستون عام.
- تزوج الملك المؤيد من امرأه تسمى " سعادات " ثم تزوجها الظاهر ططر بعد ذلك ، و أنجب أولاد كان منهم " إبراهيم " الذي قاد الجيش في آسيا الصغرى و تُوفي فجأه بعد رجوعه مصر و هو أكبر قليلاً من عشرون عاماً ، و أنجب " أحمد " الذي تسلطن بعده و عنده أقل من سنتين فبقى أصغر سلطان جلس على عرش مصر ، وأنجب آخر أسمه " موسى " تُوفي و هو رضيع ، كما أنجب ابنتان " ستيته " و " آسيه ".
- وكان الملك المؤيد سلطان ذكى ، شجاع ، متدين و يحب العلم و الشعر و الأدب و كان يكتب أشعاراً ، و أظهر قدرات عالية في إدارة شئون البلاد و في القيادة العسكرية .
- وعُرِف المؤيد بالتواضع و التقشف و كان يظهر و هو يرتدي ملابس المتصوفة.
- والمؤيد كان يعانى من وجع مزمن في قدمه. ولكن المقريزي عاب عليه أشياء كثيره منها البخل و السب و الحسد ،كما اتهمه المقريزي إنه كان " أكثر أسباب خراب مصر والشام، لكثرة ما كان يثيره من الشرور والفتن أيام نيابته بطرابلس ودمشق، ثم ما أفسده في أيام ملكه من كثرة المظالم ونهب البلاد، وتسليط أتباعه على الناس، يسومونهم الذلة، ويأخذون ما قدروا عليه، بغير وازع من عقل، ولا ناه من دين " .
- لكن المقريزي رجع سبب الفساد الذي حدث في عهده للبطانة الفاسدة فقال : " لو كان قد أيد بوزير أصدق وبطانة خير، لما قصر عن الأفعال الجميلة، بل إنما اقترن به فاجر جرئ أو خب (يعنى خداع و فاسد) شقي[٤] "

---

[1])http://www.sis.gov.eg/Ar/Templates/Articles/tmpArticles.aspx?ArtID=2277

[٢]) ***الموسوعة العربية " Arab Encyclopedia "*** ، سوريا ، دمشق ،٢٠١٢، ص٣٦٥،٣٦٤.

[٣]) المقريزي : ***السلوك لمعرفة دول الملوك***، دار الكتب، القاهرة ١٩٩٦،الجزء السادس ، ص ٣٨٨،٣٩٦.

[٤])المقريزي، تقي الدين ابو العباس : السلوك ، الجزء السابع ، ص ١٣، ص٢٧.

- موقف المقريزي من الملك المؤيد و انتقاده له سجله المؤرخ ابن إياس بقوله : " وغالب المؤرخين أثنوا عليه في التاريخ إلا الشيخ تقى الدين المقريزي، فإنه حط عليه بمساوئ كثيرة ". وعلى عكس المقريزي يقول ابن إياس : " وكانت الناس في أيامه في لهو وفرح و مخلعه" [1]

٤/١ الأشرف سيف الدين بارسباي.

- الأشرف سيف الدين برسباي (ت. ذي الحجة ٨٤١هـ/ مايو ١٤٣٧) هو السلطان الثاني والثلاثون في ترتيب سلاطين دولة المماليك. تولّى السلطان "برسباي" عرش دولة المماليك ، ١ أبريل ١٤٢٢م/ ٨ ربيع الآخر ٨٢٥هـ. ويُعدّ من عظام سلاطين الدولة المملوكية ، وعلى يديه فُتحت قبرص .
- بدأ "برسباي" حياته مثل آلاف المماليك الذين يُجلبون إلى مصر، ويتلقون تعليما شرعيا وتربية خاصة في فنون الحرب والقتال، ثم يلتحقون بخدمة السلاطين، وكبار الأمراء، وترتقي ببعضهم مواهبهم وملكاتهم إلى المناصب القيادية في الدولة، وقد تسعدهم الأقدار فيصعدون إلى سدة الحكم والسلطنة.
- كان برسباي مملوكا للأمير "دقماق المحمدي" نائب "ملطية"، الذي اشتراه من أحد تجار الرقيق، ومكث في خدمته زمنا، ولقب بالدقماق نسبة إليه، فأصبح يعرف ببرسباي الدقماقي، ثم أهداه سيده إلى السلطان "الظاهر برقوق" سلطان مصر، فأعتقه، وجعله من جملة مماليكه وأمرائه، وبعد وفاة السلطان برقوق تقلّب في مناصب متعددة في عهد من خلفه من السلاطين، حتى نجح في اعتلاء عرش السلطنة في (٨ من ربيع الآخر ٨٢٥هـ / ١ من إبريل ١٤٢٢م)، وهو السلطان الثامن في ترتيب سلاطين دولة المماليك الجركسية، والثاني والثلاثون في الترتيب العام لسلاطين دولة المماليك.
- وقد نجح السلطان برسباي في الفترة التي قضاها في الحكم -وهي نحو سبعة عشر عاما- في إشاعة الأمن والاستقرار، والقضاء على الثورات والفتن، التي شبت في البلاد، والضرب على أيدي الخارجين على النظام، كما فعل مع ثورة طائفة المماليك الأجلاب، وهم الذين جاءوا إلى مصر كبارًا، وكانوا قد عاثوا في الأرض فسادًا لتأخر رواتبهم في عامي (٨٣٥هـ / ١٤٣١م)، (٨٣٨هـ / ١٤٣٤م)، وقد مكّنه ذلك الاستقرار الذي نعمت به البلاد من القيام بغزو جزيرة قبرص.
- وبعد أن قضى السلطان برسباي في الحكم نحو سبعة عشر عاما، تُوفي في (ذي الحجة ٨٤١هـ / مايو ١٤٣٧م)، بعد أن ارتبط اسمه بالجهاد ضد الصليبيين، وأضاف إلى دولته جزيرة قبرص، وهو ما أضفى على سلطنته رونقًا وشهرة.[2]

٥/١ الأشرف سيف الدين قايتباي

- قايتباي المحمودي الأشرفي ، ثم الظاهري، أبو النصر ، سيف الدين أو الأشرف سيف الدين قايتباي ، سلطان الديار المصرية، من المماليك البرجية ، أي (ملوك الجراكسة)[3].
- ولد سنة ٨١٥ هـ ـ ١٤١٢ م، وكان من المماليك، واشتراه الأشرف برسباي بمصر صغيرًا من الخوجة محمود سنة ٩٣٨هـ، وصار إلى الظاهر جقمق بالشراء ، فأعتقه واستخدمه في جيشه ، فانتهى أمره إلى أن أصبح في سنة ٨٧٢هـ أتابك العسكر للظاهر تمربغا الذي خلعه المماليكُ في السنة نفسها [4]، وبايعوا "قايتباي" بالسلطنة ، فتلقب بالملك الأشرف.
- وكانت مدته حافلة بالحروب ، وسيرتُه من أطول السِّيَر. تعرضت البلاد في أيامه لأخطار خارجية، أشدها ابتداء العثمانيين ـ أصحاب القسطنطينية ـ محاولة احتلال حلب وما حولها، فأنفق أموالاً عظيمة على الجيوش كانت من العجائب التي لم يُسمع بمثلها في الإنفاق، وشُغِل بالعثمانيين، حتى إن صاحب الأندلس استغاث به لإعانته على دفع الفرنج عن غرناطة، فاكتفى بالالتجاء إلى تهديدهم بواسطة القسيسين الذين في القدس، سلمًا دون قتال، فضاعت غرناطة وذهبت الأندلس.

---

[1]) ابن إياس، زين العابدين محمد بن أحمد : ***بدائع الزهور في وقائع الدهور***، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢، الجزء الثاني ، ص ٦٢،٦٣.

[2]) ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن الأمير سيف الدين : ***النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة*** ،الجزء الرابع ، ص ١٠٢.

[3])http://arz.wikipedia.org/

[4]) Petry ,C.F: Twilight of majesty: ***the reigns of the Mamlūk Sultans al-Ashrāf Qāytbāy and Qānṣūh al-Ghawrī in Egypt*** ,Seattle, 1993.p:306.

- كان الأشرف قايتباي متقشفًا مع عظم إنفاقه على الجيوش ـ كثير المطالعة، له اشتغال بالعلم، وفيه نزعة صوفية، كما كان شجاعًا عارفًا بأنواع الفروسية، مَهيبًا عاقلاً حكيمًا، إذا غضب لم يلبث أن تزول حِدّته. كما اتصف بالشجاعة والإقدام، و بُعد النظر والنشاط والحزم. و ترك كثيراً من آثار العمران في مصر وأبرزها قلعة قايتباي بالإسكندرية ودمشق والحجاز والقدس، ولا يزال بعضها قائماً إلى الآن. تُوفي بالقاهرة سنة ٩٠١ هـ ـ ١٤٩٦م.
- خلفه أربعة سلاطين إلا أنهم كانوا أقل قوة وأكثر ضعفا إلى أن جاء السلطان الغوري في العام ١٥٠١ ميلاديه والذي أعاد للسلطنة الهيبة والقوة .وكان قدرة أن يدخل في صراع مع العثمانيين في موقعة مرج دابق ويُلقَى هزيمة نتيجة لخيانة كل من خاير بك والغزالي بك وينتهي الأمر بقتل السلطان الغوري ويقال إن جثته لم يعثر عليها. تستمر المحاولات على يد أبن اخيه طومان باي الذي لم يكن أحسن حالا وتصبح مصر ولاية عثمانية في الرابع والعشرين من شهر أغسطس العام ١٥١٦ ميلاديه بعد معركه باب النصر ويعدم طومان باي على باب زويلة[1].

▪ نظرية المماليك البحرية والبرجية والدولة الإسلامية (مصر) :

كان عهد المماليك في مصر مسرحاً للفتن والاضطرابات فيما بينهم ومع جيرانهم في الشام وفلسطين ، وذلك للوصول إلى السلطة والثروات التي تدعم ملكهم والملاحظ أن فترات حكم سلاطينهم كانت قصيرة إذا ما قيست بمن سبقوهم .

فكما ذكرنا قول المقريزي : " أن فترة حكم الملك الظاهر بيبرس كانت سبعة عشرة عاماً وشهرين " وهذه فترة طويلة إذا ما قيست بفترات حكم ولديه الأول حكم سنتان وسجن والثاني حكم تسعين يوماً فقط ولحق بأخيه في السجن .

" واستولى قلاوون وكان قبجاقي الجنس من قبيلة مرج وجعل من جملة البحرية " [2]، أي أن قلاوون لم يكن من الأصل التركي وإنما كان من أصل شركسي (أي يمكن نسبه إلى مماليك الدولة البرجية) بالرغم من أن فترة حكمه هو وأولاده تجاوزت تسع وخمسون عاماً وكانت أطول فترة حكم في تاريخ دولة المماليك بوجه عام .

ومن هذا المنطلق يمكن هدم نظرية المماليك البحرية والبرجية ، فكلاهما انصهرا مع بعضهما البعض ويؤكد ذلك أيضاً ما ذكره المقريزي بخصوص تزاوج ابن بيبرس الملك سعيد ناصر الدين من ابنة قلاوون [3].

وعن سبب مسمى " دولة المماليك الإسلامية " يرجع لنقل مركز الخلافة العباسية بمصر واستيلاء بيبرس على الزعامة الدينية بعد قضاءه على دولة بني العباس نهائياً .

▪ بناء المجتمع في مصر على عصر سلاطين المماليك ..

عاش المماليك في مصر طبقه منفصلة ممتازة عن سائر السكان بالبلاد المصرية ، وساعد ذلك على قيام نظام طبقي و ضحت فيه كل طبقه من طبقات المجتمع وضوحاً أملاه مركزها و نوع نشاطها.
ولاحظ المعاصرون هذه الفوارق بين الطبقات، فحاول [المقريزي]* تقسيم أهل مصر في عصره إلى سبعة أقسام هم : أهل الدولة من المماليك ، و أهل اليسار من التجار، و متوسط الحال من الباعة و السوقة ، و أهل الفلح ، و الفقهاء و يشملون طلاب العلم ، و أرباب الصنائع و المهن ، و ذوو الحاجة و المسكنة.

---

[1])Newhall, A. W:*The patronage of the Mamluk Sultan Qā'it Bay*, 872-901/1468-1496 ,Diss. Harvard, 1987. p:87.

[2]) المقريزي، تقي الدين ابو العباس : *الخطط المقريزية* (الجزء الثاني) ، دار صادر بيروت ، صـ ٢٣٨ (تلخيص).

[3])المقريزي : المرجع السابق ، صـ ٢٣٨ .

*احمد بن على المقريزي٧٦٥ ـ ٨٤٥هـ / ١٣٦٤ـ ١٤٤١م : ولد بالقاهرة في حارة برجوان عام ٧٦٥هـ/١٣٦٤م ، و هي منطقة كانت و مازالت من اعظم مناطق القاهرة امتلاء بالعمران و الصخب و ضوضاء الحياة ، و قد عمل طويلا في عدة مناصب حكومية كبيرة مثل ديوان الإنشاء بالقلعة ، ثم قاضيا عند قاضى قضاة الشافعية ، فإماما لجامع الحاكم ، و مدرسا للحديث بالمدرسة المؤيدية ، ثم اختاره السلطان برقوق لوظيفة محتسب بالقاهرة ، ثم عمل بالتدريس في دمشق ، وعاد إلى القاهرة ليتفرغ للدراسة و من أعماله : درر العقود الفريدة في تراجم الاعيان الفريدة ،والمواعظ والاعتبار ، و عقد جواهر الاسفاط من اخبار مدينة الفسطاط ،و اتعاظ الحنفاء ، و السلوك ، و اغاثة الامة .عن : (الوقاد ، محاسن محمد الوقاد – (د) *الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية* ، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٩،ص ١٠٩،٢١).

و من الواضح أن هذا التقسيم – رغم شموله – يغفل ذكر، أرباب الوظائف الديوانية من المسلمين و الذميين، كما يغفل الأعراب مع ما لهاتين الطائفتين من أهميه في عصر المماليك .

أما [بيلوتى الكريتى] الذي عاش بمصر أواخر القرن الرابع عشر الميلادي- بمعنى إنه كان معاصر للمقريزي- فقد قسم المجتمع في مصر إلى ثلاث طوائف كبرى: هي الشعب المصري بمختلف فئاته الخاضعة لحكومة السلطان سياسيا و نفوذ الخليفة دينياً ، وطائفة المماليك و هي عسكريه شعارها الأطماع و الدسائس و الانقلابات ، ثم طائفه البدو و الأعراب الذين لا يتركون فرصه تمر دون أن يخلقوا للحكومة و الأهالي متاعب متنوعه[1].

ولـ [ابن خلدون***] تقسيم معروف ، نصه أن ملك مصر في عصر المماليك " إنما هو سلطان و رعيه " ، أي أن هناك طبقه حاكمه مسيطره تمثل السادة من المماليك و طبقه من المحكومين المغلوبين على أمرهم يمثلون فئات أهل مصر جميعاً .

و اتفق مع [ابن خلدون] في رأيه من المؤرخين المحدثين [لين بول]****، الذي قسم سكان مصر في عصر المماليك إلى طبقتين كبيرتين تفصل بينهما حواجز وسدود معينه..

الأولى:	طبقة المماليك	و عرفها : بإنهم أقليه عسكريه ممتازة(Military Oligarchy)
الثانية :	بقية فئات الشعب الخاضعة	و عليها فلاحة الأرض و دفع الضرائب ، و قال إن الطبقة الثانية عاشت محرومه من كل نفوذ في شئون الحكم، سوى بعض الوظائف ذات الصبغة الدينية[2] .

و من الملاحظات السابقة و غيرها نستطيع تقسيم سكان مصر في عصر سلاطين المماليك إلى فئات ثمان هي : المماليك ، المعممون ، و التجار ، و طوائف السكان ، و أرباب المهن في المدن ، و أهل الذمه و الفلاحون ، و الأعراب ، و الأقليات الأجنبية .

- **الحياة الاجتماعية في عصر سلاطين المماليك :**

كما ذكرنا أن المماليك كانوا الطبقة العسكرية الممتازة التي سيطرت على البلاد و أهلها، و لهم في أصلهم و نشأتهم و طريقة تربيتهم و أسلوبهم الخاص في الحياة و عدم اختلاطهم بأهالي البلاد ، سياج يحيط بهم و يجعل منهم طبقه ذات خصائص تعزلها عن المحيط الذي تعيش وسطه.

و تثبت الشواهد التاريخية أن المماليك لم يكونوا جميعاً من أصل واحد :

- فالسلطان قطز هو ابن أخت ملك خوارزم جلال الدين مانجوبرتى الذي قضت عليه جيوش جنكيز خان .
- و السلطان قلاوون قفجاقى من قبيله برج أغلى ببلاد القفجاق .
- و السلطان كتبغا مغولي الأصل جاء إلى مصر أسيراً في موقعة حمص سنه ٦٥٨ هـ .
- و السطان لاجين أصله من إحدى البلاد الواقعة على شاطئ بحر البلطيق.

وقد ذكر [ارنولد هارف] الألماني في رحلته إنه تعرف في القاهرة على اثنين من المماليك إحداهما أصله من مدينه بال ، و الثاني من مدينة دانزج .. أما الرحالة [بيرو تافور] فظهر له أن مندوب السلطان الذي استقبله بالقاهرة مواطن له من قشتاله ، و من مواليد إشبيليه.

و هؤلاء المماليك و إخوانهم جاءوا إلى مصر من مختلف البلاد مع تجار الرقيق ، و شجع هؤلاء التجار على جلب الرقيق من الجنسين سعه الأموال التي بذلها لهم السلاطين و الأمراء رغبة في الإكثار من مماليكهم حتى يكونوا لهم سنداً يعتمدون عليه، فضلاً عن الرغبة في أبهة التملك على أعداد عظيمه من الجند و الحاشية .

- **اقبال السلاطين على شراء المماليك :**

و خير ما يوضح إقبال السلاطين على شراء المماليك و تشجيعهم للتجار على جلبهم:-

- قول المقريزي عن السلطان الناصر محمد إنه " أكثر من جلب المماليك و الجواري، وطلب التجار إليه وبذل لهم المال ، ووصف لهم حلي المماليك و الجواري ، و سيرهم إلى البلاد أزبك و توريز و الروم و

---

[1]) Dopp : ***L'égypte au commencement du quinziéme siécle daprés le traité dEmmanuel Piloti de Créte*** (incipit 1420) : Avec une introd. et des notes par P[ierre]-H[erman] Dopp, Le Caire Imp. Univ. Fouad I,1950, p.IX

*** **ابن خلدون** ٧٣٢-٨٠٤ هـ / ١٣٣٢-١٤٠٦م : من اكثر المؤرخين المسلمين شهرة و تضعه مؤلفاته التاريخية الخلاقة في موضع يسمو عن غيره من معاصريه . و قد اغتنت رؤيته التاريخية من خلال تجاربة الشخصية في مختلف قصور الولاة في المغرب العربي و الاندلس حيث تمتع بالرخاء و الشقاء بنفية لبعض الوقت قبل أن يفد إلى مصر في ٧٨٤هـ/١٣٨٤م . و في مصر تمتع بمساندة و رعاية السلطان برقوق الذي عينة في ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ م ،وعين برقوق ابن خلدون قاضي قضاة المالكية في مصر، و في سنة ٧٩١ هـ/١٣٨٩ م تولى ابن خلدون مشيخة الخانقاه البيبرسية بالجمالية . و كان ضمن حاشية السلطان فرج بن برقوق حين ارتحل إلى الشام لملاقاة تيمورلنك في ٨٠٤هـ/١٤٠١م حيث اجتمع بتيمورلنك و كتب له تاريخ مختصر عن شمال افريقيا . و من أشهر مؤلفات ابن خلدون ، مؤلف عن تاريخ العالم الإسلامي في ثلاث اجزاء وضع فيه عصارة أفكاره و تجاربه الشخصية في قصور ولاة و حكام العالم الإسلامي في المغرب و الاندلس و مصر. عن : (كنج ، جوان فوتشر : ***معجم تاريخ مصر*** - المجلس الاعلى للثقافة – ٢٠٠٣.ص١٥٧)

**** ستانلي لين بول كان مستشرق وعالم آثار بريطاني. ولد في لندن، من عام ١٨٧٤م إلى عام ١٨٩٢م عمل في المتحف البريطاني، وبعد ذلك اشتغل بالبحث في مصر حول علوم المصريات.عن:http://ar.wikipedia.org/wiki

[2]) Poole, Stanley Lane: ***A History of Egypt in the Middle Ages***,New York:C.Scribner's Sons,Boston public library,1901.pp: 252,253.

بغداد و غير ذلك من البلاد، فكان التاجر إذا اتاه بالجلبة من المماليك بذل له فيها أغلى القيم ، وأنعم على تلك المماليك في يومهم بالملابس الفاخرة و الخيول و العطايا حتى يدهشهم .."

- و هكذا يقال أن عدد المماليك السلطانية بلغ أيام السلطان المنصور قلاوون سته آلاف وسبعمائة " فأراد أبنه الأشرف خليل تكميل عدتها عشرة آلاف مملوك ".

- أما السلطان برقوق فيقال إنه اشترى مده سلطنته خمسة آلاف مملوك .

- **انتساب المماليك** :

- انتسب هؤلاء المماليك غالباً إلى أساتذتهم ، أي سادتهم الذين اشتروهم من التجار ، أو انتقلوا إليهم بطريقه أو أخرى ؛ فالأشرفية خليل نسبه إلى السلطان الأشرف خليل ، و الأشرفية برسباي نسبه إلى الأشرف برسباي ، و الأشرفية الإينالية نسبه إلى الأشرف إينال، و الظاهرية بيبرس نسبه إلى الظاهر بيبرس ، و الظاهرية جقمق نسبه إلى الظاهر جقمق ..و هكذا.
- و ربما انتسب المملوك إلى تاجره الذي جلبه ، و لصقت به هذه التسميه طوال حياته ، مثل يابغا السالمي نسبه إلى التاجر الذي جلبه و اسمه سالم ، و المماليك العثمانية نسبه إلى الخواجا عثمان فخر الدين و هو من كبار التجار الذين جلبوا كثيرا من المماليك و الجواري إلى سلاطين المماليك بمصر.
- و أحيانا نسب المماليك إلى أصولهم و قبائلهم مثل المماليك العثمانية الذين أسرهم أزبك سنه ٨٩٤ هـ / ١٤٨٨ م عندما انتصر على الأتراك العثمانيين ، فأنزلهم قايتباى في ديوانه .
- و ربما انتسب المملوك إلى قيمته التي أشترى بها إذا كانت مبلغاً كبيراً يستحق التفاخر و يدل على ما في المملوك من صفات طيبه و مواهب ، مثل قلاوون الذي اشتراه أستاذه الأمير علاء الدين آقسنقر بألف دينار " و غالى في قيمته لحسنه و صورته فعرف بالألفي ".

- **تربية المماليك** :

- ونظرا للأهمية العسكرية والسياسية للمماليك ، كان السلطان يرسل المماليك الجدد الذين يشتريهم إلى الأطباء لفحصهم[١] ثم ينزلهم في طبقة جنسهم فيتسلمهم الطواشي المقدم على الطبقة [٢]، وبعد إثبات سلامتهم البدنية يتم توزيعهم في الثكنات (الطباق) العسكرية بالقلعة حسب جنسياتهم ثم يتولى الفقهاء تعليمهم أصول الدين الإسلامي ، ومبادئ اللغة العربية [٣] .
- وقد خصص لكل من هذه الطباق فقيه يحضر إليها لتعليم المماليك القرآن ،و الخط ،و أحكام الدين وآداب الشريعة .. فإذا كبر المملوك وأدرك سن البلوغ بدأ تعليمه فنون الحرب " الرمي بالنشاب ، واللعب بالرمح ، و ركوب الخيل ، و أنواع الفروسية " .
- و شهد " برنارد دى بريدنباخ *" المماليك السلطانية و هم يقومون بتمريناتهم الحربية عند سفح المقطم. و عندما ينتهى المملوك من هذه المرحلة التعليمية ينتقل إلى الخدمة و يمر بأدوارها رتبة بعد رتبة حتى يصل إلى الأمراء.
- و اهتم السلاطين اهتماماً بالغاً بتربية مماليكهم، فعينوا لهم مؤدبين من أكابر الأمراء بالإضافة إلى الفقهاء ومعلمي الفروسية.
- وقام هؤلاء الأمراء بفحص أحوال المماليك ومراقبة حركاتهم وسكناتهم و عقاب الخارج على آدب الدين أو الدنيا عقوبة صارمة بمعرفة الطواشية.
- وذكر المقريزي في "الخطط " أن هؤلاء الطواشية كانوا في عصره ذوي حرمه وافرة وكلمة نافذه ، ويعد شيخهم من أعيان الناس[٤] .
- كذلك ذكر أبو المحاسن في كتابه " النجوم الزاهرة" أن الطواشي " كانت له سطوة و مهابه على المماليك السلطانية ، بحيث إنه كان لا يستجرىء أحد أن يمر من بين يديه كائناً من كان، بحاجة أو بغير حاجة وحيثما وقع بصره عليه أمر بضربه[٥]" .

---

[١]) البهنسي – صلاح / حسام الدين – محمد: ***الفن المملوكي عظمة وسحر السلاطين*** – سلسلة معارض "متحف بلا حدود" الدولية –الفن الإسلامي في منطقة البحر المتوسط - الدار المصرية اللبنانية – ص ٤١.

[2]) Poole, Stanley Lane: ***A History of Egypt in the Middle Ages***,New York:C.Scribner's Sons,Boston public library,1901.p 252.

[٣]) البهنسي – المصدر السابق – ص ٤١.

*الرحالة الألماني **برنارد فون بريدنباخ** Bernhard von Breydenbach ، (....- ١٤٩٧م)، زار مصر فى عهد السلطان الأشرف قايتباي، في كتابه المنشور عام ١٤٠٩م وصف مظاهر بهجة الناس بهذا الشهر، ووصف إنارة المساجد والدروب، وحلقات الإنشاد والذكر.

[٤]) المقريزي، تقي الدين : ***الخطط المقريزية (لمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)*** – الجزء الثالث - ص ٣٤٧.

[٥]) ابن تغري بردي، أبو المحاسن : ***النجوم الزاهرة*** – الجزء الثامن - ص ٢٣٨.

والمشتري وصار يُسمى الموجّب ، ثم انتقلوا من الغلال إلى أن جعلوا على البطيخ مكساً أيضاً[1] .

الخيانة :

وظهر من المماليك الحسن الصالح كالأمير سودون العجمى ومنهم الخائن كخائر بك نائب حلب - وكانت بلاد الشام تابعة لمصر في العصر المملوكي حتى العصر العثماني[2] ؛ فقد كان أول من كسر العسكر وهرب عن ميسرة السلطان حتى انكسر فتوجه إلى حماة فلما ملك ابن عثمان حلب أرسل خلفه وأخلع عليه وصار من جملة امرائه ، ولبس زي التراكمة العمامة المدورة وقصص ذقنه ، وسماه ابن عثمان خاين بك ، كون أنه خان سلطانه وأطاع ابن عثمان .

وقد حدث مثل تلك الخيانه من ابن العلقمى وزير بغداد لما والس على الخليفة المستعصم بالله وملك هولاكو ملك التتار مدينة بغداد وقتل الخليفة المستعصم فصار ابن العلقمي من المقربين عند هولاكو ، ثم أنقلب عليه وقتله وصلبه وقال له : أنت ما كان في وجهك خير لأستاذك يكون في وجهك خير لي[3]

ومن أفعاله الشنيعة ما فعله مع أولاد الناس من خروج أقاطيعهم ورزقهم من غير سبب ، وأعطى ذلك إلى مماليكه الجُلبان ، ومنها قطع جوامك الأيتام من الرجال والنساء والصغار ؛فحصل لهم الدمار الشامل بسبب ذلك[4] .وغير ذلك كثير.

ويُقال إنه لا أحد انكسر على هذا الوجه أبداً ولا سمع بمثل ذلك ونُهب ماله بيد عدوه غير قانصوه الغوري ، وكان السلطان والأمراء ما منهم أحد ينظر في مصالح المسلمين بعين العدل والإنصاف فردت عليهم أعمالهم ونياتهم وسلط الله عليهم ابن عثمان حتى جرى لهم ما جرى ، فكان كما قيل في المعنى :

---

[1]) الغيطاني – جمال : ***قاهريات مسكية*** –دار المعارف – سلسلة اقرأ- ص ١٣.

[2]) عوف –أحمد – (د) :***أحوال مصر من عصر لعصر*** – العربي للنشر والتوزيع –ص ٧٩ .

[3]) ابن إياس الحنفي – محمد بن أحمد : ***المختار من بدائع الزهور*** – مكتبة الأسرة – روائع التراث - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ص ٤٥.

* ويذكر ابن اياس موت السلطان قانصوه الغورى من القهر في المواجهه بينه وبين ابن عثمان استطاع بعض من مماليكه (الاتابكى سودون العجمى وملك الامراء سيباي نائب الشام والمماليك القراصنه دون المماليك الجلبان) فقاتلوا قتالاً شديداً فهزموا عسكر ابن عثمان وكسروهم كسره مهولة فهمّ ابن عثمان بالهروب أو يطلب الأمان ، وقد قتل من عسكره فوق العشرة آلاف إنسان ، وكانت النصره لعسكر مصر أولاً ،ثم بلغ المماليك القراصنة أن السلطان قال لمماليكة الجلبان لا تقاتلوا وخلوا المماليك القراصنة تقاتل وحدهم ؛فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال ، فبينما هم على ذلك واذا بالأتابكى سودون العجمى قد قتل في المعركة وقتل ملك الأمراء سيباى نائب الشام فانهزم من في الميمنه من العسكر ، ثم ان خاير بك نائب حلب انهزم وهرب فكسر الميسره – واتضح فيما بعد خيانته للسلطان فكان أول من هرب هو قبل العسكر .

ولما اضطربت الأحوال تقدم الأمير تمر الزردكاش إلي السلطان وقال له يامولانا السلطان إن عسكر ابن عثمان قد أدركنا فانج بنفسك واهرب الى حلب فلما تحقق السلطان ذلك نزل عليه في الحال فـ (أبطل شقه وأرخى حنكه) فطلب ماء فأتوه بماء في طاسة ذهب ، فشرب منه قليلاً وأتوا بفرسه على أنه يهرب ، فمشي خطوتين وانقلب من على الفرس إلى الأرض ، فأقام وخرجت روحه ومات من شدة قهره ، وقيل فقعت مرارته وطلع من حلقه دم أحمر .

وكانت مدة سلطنته خمس عشرة سنه وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوماً كانت الناس معه في هذه المده غايه في الضنك –حسب قول ابن اياس –

اعجبوا للأشرف الغوري الذي مذ تزايد ظلمه في القاهرة
زال عنه ملكه في ساعة خسر الدنيا إذاً والآخره .

وكانت هذه المده على الناس كل يوم منها كألف سنه مما تعدون وكانت صفته طويل القامه غليظ الجسد ذو كرش كبير ، أبيض اللون ، مدور الوجه ، مشحم العينين ، جهورى الصوت ، مستدير اللحيه ، ولم يظهر بلحيته الشيب إلا قليلاً ، وكان ملكاً مهيباً جليلاً مبجلاً في المواكب ملئ العيون في المنظر ، ولولا ظلمه وكثرة مصادرته للرعيه وحبه لجمع الأموال لكان خيار ملوك الجراكسه بل وخيار ملوك مصر قاطبة ، وكان يُعرف بقانصوه من يبردى الغورى .

وهو نافذ الكلمة والأمراء والنواب والعسكر في قبضة يده لم يختلف عليه اثنان إلى أن وقعت الوحشة بينه وبين سليم شاه بن عثمان ملك الروم فخرج إليه ، وجرى له هذه الكاينة العظمى التي لم تقع قط لملك من ملوك مصر . وكانت له محاسن ومساوئ لكن مساوئه أكثر من محاسنه وذكر في محاسنه أنه كان رضي الخلق يملك نفسه عند الغضب

- كان له اعتقاد زائد في الصالحين والفقراء
- كان يعرف مقادير الناس على قدر طبقاتهم
- ماسك اللسان عن السب في شدة الغضب
- يحب سماع الآلات والغناء وله نظم على اللغة التركيه ، وكان مغرماً بقراءة التواريخ والسير ودواوين الأشعار .
- وكان قريباً من الناس يُحب المزح والمجون في مجلسه غير كثيف الطبع .
- وكان عنده لين جانب بخلاف طبع الأتراك ولم يكن عنه شمم ولا تكبر نفس بخلاف عادة الملوك في أفعالهم .

ومساوئه :

-أنه أحدث في أيام دولته من أنواع المظالم مالا حدثت في سائر الدول من قبله ، ومنها أن معاملته في الذهب والفضة والفلوس الجدد أنحس المعاملات جميعها زغل ونحاس وغش لا يحل صرفها . ومنها ما قرره على الحسبة في كل شهر وهو مبلغ ألفين وسبعمائة دينار فكانت السوقة تبيع البضائع بما تختاره من الأثمان ولا يقدر أحد يكلمهم فيقولون : علينا مال السلطان ؛فكانت سائر البضائع في أيامه غاليه بسبب ذلك

- وقرر على دار الضرب مالا له صورة في كل شهر فكانوا يصنعون في الذهب والفضة والنحاس والرصاص جهاراً ؛فكان الشرفي الذهب إذا صفوه يظهر فيه ذهب يساوى اثنا عشر نصفاً ، وقد سلّم السلطان دار الضرب إلي شخص يسمى جمال الدين فلعب في أموال المسلمين وأتلف المعاملة وسبك ذهب السلاطين المتقدمة حتى صار لا يلوح لأحد من الناس منهم لا دينار ولا درهم ، فلما شنق جمال الدين قرر في دار الضرب المعلم يعقوب اليهودي فمشي على طريقة جمال الدين ، وقد استباح أموال المسلمين .

- وكان يضع يده على أموال التركات الأهلية ويأخذ مال الأيتام ظلماً ، ولو كان للميت أولاد ذكور أو إناث فيمنعهم من ميراثهم ،ويخالف أمر الشرع الشريف

[4]) ابن إياس الحنفي – محمد بن أحمد : ***المختار من بدائع الزهور*** – مكتبة الأسرة – روائع التراث - الهيئة المصرية العامه للكتاب - ص ٥٢ ، ص ٥٣ .

- ولما خلف فرج ابن برقوق أباه وكانت أمه روميه فنراه يقرب الروم من المماليك واستبعد الشراكسة جلدة أبيه وكانوا الأغلبية في جيش السلطنة فدخل معهم في صراع دموي حتى قضى على معظمهم مما أضعف من قوته العسكرية [1] .

- **تأثير الشخصية المملوكية على الفراغ المعماري المملوكي :**

جمعت الشخصية المملوكية متناقضات عدة ، كان لها عظيم الأثر في خلق فلسفة خاصة بهم ، وتأثرت بها عمائرهم في :

١	**التناقض بين نشأة الفقر والحرمان وما وصلوا إليه من جاه ومال وسلطان:**	أظهر في الفراغات المعمارية التضاد العضوي والبيئي بين البيئة الخارجية (حياتهم الأولى في البيئة العسكرية القاسية) والبيئة الداخلية للفراغ (الجنة والرفاهية وحلمهم الموعود) فظهر ذلك باهتمامهم المبالغ في الزخرفة الداخلية .
٢	**الحنين للخلاء وامتداد الرؤية البصرية للسماء:**	(نمط المعسكرات الحربية) جعلهم يحرصون على وجود الفناء المفتوح على السماء .
٣	**ظهر عندهم تشبيه بين حرمة ما يملكون (حريم المنزل) وحرمة المسجد:**	وظهر ذلك باستخدام التشكيلات الزخرفية للقوصرات فوق مدخل حريم المسكن وهي نفس التشكيلات الموظفة في المداخل الرئيسية للمساجد.
٤	**الشعور بالعظمة والكبر:**	وظهر ذلك باستخدام المقياس الفخيم في المداخل لإشعار الداخل بصغر شأنه .
٥	**شدة البأس والصلابة في الحياة انعكست على الخامات التشكيلية:**	التي أحبوا استخدامها في عمائرهم مثل حب النقش على الحجر وتعاشيق الرخام والتكسية الرخامية ويرجح ذلك عدم حبهم لتشكيلات الفسيفساء (الموزاييك).
٦	**حب الامتلاك:**	جعلهم يتسابقون فيما بينهم على امتلاك وتصنيع أعمال زخرفية [2] .

- **الاهتمام بالفنون والعمارة :**

- كانت التقاليد الثقافية والنظم السياسية في فترة الحكم المملوكي استمراراً لما كان متبعاً في العصر الأيوبي بفارق واحد وهو أن مصر في العهد المملوكي صارت منبراً للخلافة العباسية ، ولقد أدى ذلك إلى ازدهار الحياة الثقافية والنهضة الفنية بها بصفتها أهم مركز في العالم الإسلامي .

- وللفترة المملوكية أهمية خاصة في محيط تطور الفن الإسلامي في الجزء الغربي من العالم الإسلامي ، حيث ظهرت في مصر وسوريا عناصر من الفنون التركية التي أدخلها المماليك ، ويُعد ذلك خطوة مهمة ترتب عليها انقلابات فنية جوهرية في الفن الإسلامي الموجود في هذه المنطقة ، ولقد أخذ الفنان في مصر من هذه العناصر التركية بعض الأساليب الفنية ومزجها بتقاليد فاطمية محلية ، وأنبثق من هذا أسلوب فني مملوكي جديد ، كما ظهرت أيضاً بعض العناصر المغولية المعاصرة في الفن المملوكي [3] ، والعلاقة بين الدين والتغير الاجتماعي في المجتمع المملوكي تعتبر غاية في التميز والخصوصية وذلك نظراً للالتصاق الوثيق بين الدين والمجتمع بشكل عام والدين والدولة بشكل خاص .

---

[1]) عوف – أحمد – (د) :**أحوال مصر من عصر لعصر** – العربي للنشر والتوزيع-ص ٨٠،٨٤،٨٩تلخيص .

[2]) إبراهيم محمود - أكرم: ***المعالجة التشكيلية السيمانية لعمارة المملوكية " دراسة تحليلية"*** – رسالة ماجستير – جامعة حلوان ، ص ١٦٦ تلخيص .

[3]) اسماعيل ، نعمت: ***فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية*** ، دار المعارف ، ١٩٨٩م ، ص٢٧٣،٢٧٢.

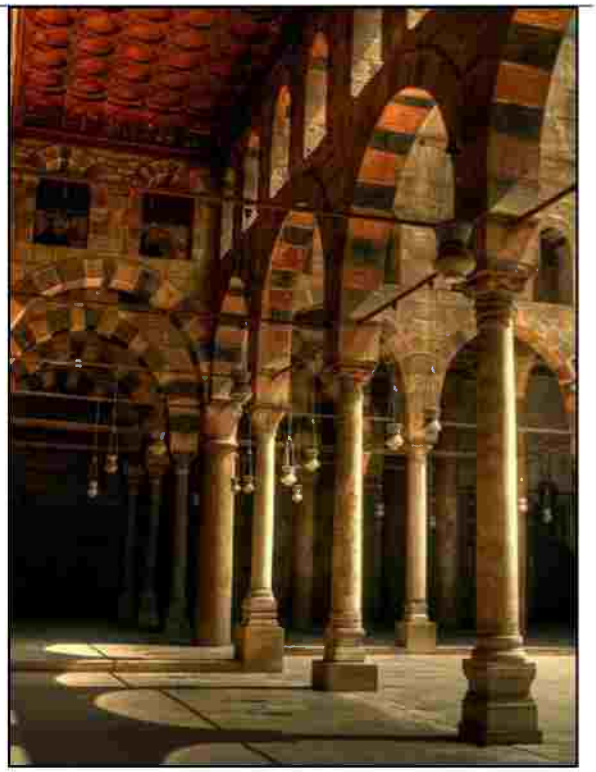

شكل (١/١/١): مسجد الناصر محمد بن قلاوون.	**شكل (٢/١/١)**: قبة السلطان الظاهر سيف الدين برقوق* .

SOURCE*http://www.deviantart.com/photography/architecture/?offset=24&view_mode=2&order*

- ولقد وجد المماليك في الدين الوسيلة المثلى لتحقيق أهدافهم ، والطبقات الحاكمة استعملت الدين لمصلحتها وتتخذ منه قناعاً لسياستها ومصدراً هاماً لشرعيتها وحتى وسيلة من وسائل القمع التي تستخدمها وأن أغلب الفرق الدينية والشيع والطوائف التي تكاثرت فجأة في صدر الإسلام وما بعده بدأت أصلاً على شكل أحزاب سياسية وصراعات على السلطة والحكم ، تستغل القوة لتشريع وجودها غير الشرعي مرة ، أو لتبرير مظالمها وابتزازها مرة أخرى [١] . وهذا بالفعل ما نفذه السلطان الظاهر بيبرس البندقداري أول سلاطين دولة المماليك البحرية الذين تبوؤا عرش مصر مدة طويلة من الزمان ؛ فشيد المساجد وزخرفها وأسس المعاهد الدينية وخفف الضرائب التي كانت سبباً في تنغيص حكم سلفة ، وهو بذلك يستهوي القلوب ويكفر عن السيئات التي ارتكبها هو وأخواته من الأسرة البحرية ، في حق السلطان توران وقطز وشعب مصر [٢] .

- ولذا زادت الرغبة في تشييد عدد كبير من الأبنية التي اهتمت بالنزعة الدينية كالجوامع والمدارس الدينية والأضرحة والمدافن والأسبلة . هذا بالإضافة للحمامات العامة والوكالات التجارية .
- وزادت العناية في هذا العصر بواجهات المساجد وذلك بتتابع طبقات أو مداميك أفقية من أحجار صفراء وأخرى حمراء داكنة أو في عمل تجاويف أو حنايا عمودية قد تفتح فيها نوافذ وقد تنتهي في أعلاها بزخارف معمارية من المقرنصات ويظهر ذلك في أشرطة الزخارف والكتابات القرآنية أو التاريخية وفي شرفات مسننة تتوج بها الواجهة [٣] .

---

*يرقد أسفل هذه القبة جثامين والده أنس وولده الناصر محمد وابنته فاطمه وزوجته خوند شاه.

[١])العقلة ،عاطف (د): ***الدين والتغير الاجتماعي*** ، الهيئة المصرية ، ١٩٩٠م ، ص٢٤.

[٢]) موير ، السير وليم : ***تاريخ دولة المماليك في مصر*** ، ترجمة / محمود عابدين وسليم حسن مدبولي ، ١٩٩٥م ، ص ٤٨ تلخيص .

[٣])سامح ، كمال الدين (د) : ***العمارة الإسلامية في مصر*** ، الهيئة المصرية ، ١٩٩١م ، ص ٧٨ تلخيص .

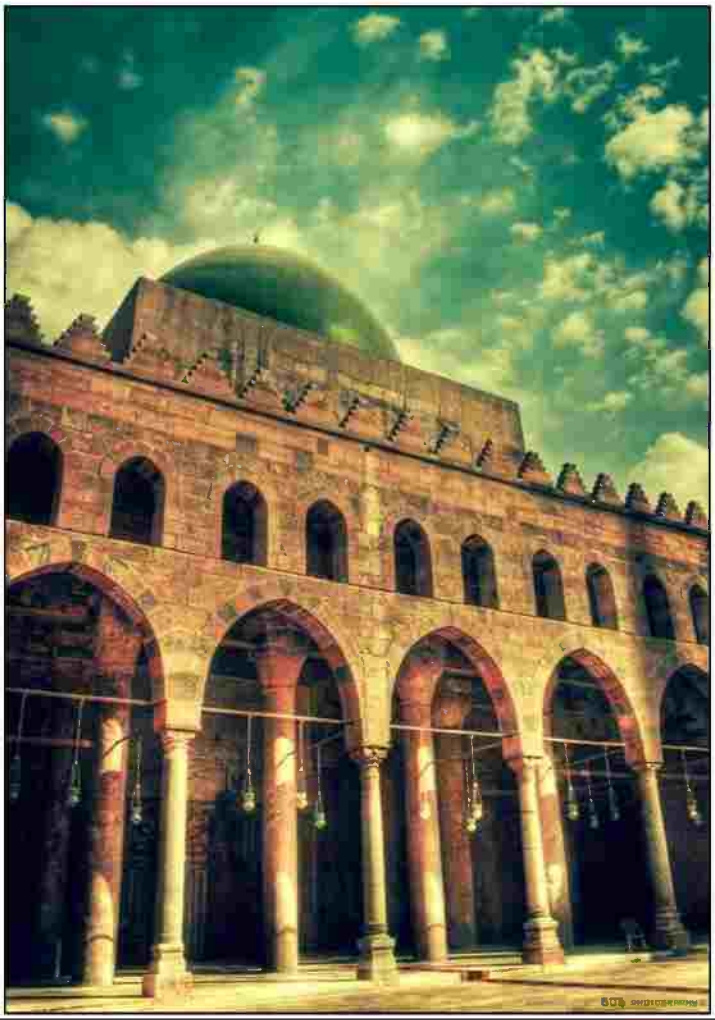

شكل (٣/١/١) : مسجد الناصر محمد .
المصدر : زيارة ميدانية /عدسة ، معالجات بصرية محمود حافظ .

- **القاهرة في العصر المملوكي :**

يشبك من مهدى الدوادار قبتين إحداهما بالمطرية أمام قصر القبة في سنة ٨٨٢هـ/١٤٧٧م وقبة الفداوية بالعباسية سنة ٨٨٦هـ/١٤٨١م كما بنى المحمدي الدمرداش قبة له بالمنطقة نفسها قبل سنة ٩٠١هـ/١٤٩٦م وبنى حول هذه القباب عدة منشآت حيث كان يخرج السلطان قايتباي ومن جاء بعده من السلاطين للتنزه والاستجمام عند قبة يشبك بالمطرية أي أن قاهرة المماليك امتدت حتى منطقة حدائق القبة الحالية.

أما الجهة الغربية لقاهرة المماليك والتي كانت تمتد غربي الخليج وحتى شاطئ النيل ومن مصر القديمة جنوبا إلى شبرا شمالا فقد نتج عن طرح النيل تكون المنطقة من ميدان رمسيس الحالي إلى بولاق وانضمت جزيرة الفيل إلى البر ونشأت منطقة شبرا الحالية وانتقل ميناء القاهرة الشمالي من منطقة ميدان رمسيس إلى بولاق منذ القرن ٨هـ/١٤م وبُني بها منذ عهد الناصر محمد ابن قلاوون عدة منشآت وخصوصا التجارية وانتقلت إليها الشئون السلطانية . كما انشئ في عهد السلطان برسباي بداية القرن٩هـ/١٥م الميناء النهري والترسانة البحرية. أما منطقة باب اللوق وعابدين الحالية فقد نشطت حركة التعمير بها منذ عهد الظاهر بيبرس حين جاء الكثير من المغول الذين اعتنقوا الاسلام فأسكنهم بتلك المنطقة كما أنشأ الناصر محمد بن قلاوون الميدان السلطاني وحفر بركة الناصرية (يوجد في المكان نفسه حالياً حي يحمل نفس الاسم) وبنى حوله الأمراء عدة منشآت لاتزال باقية.

ثم بدأ التعمير مرة اخرى بهذه المنطقة في النصف الثاني من القرن٩هـ/١٥م وما بعده في عصر المماليك الجراكسة حيث نجد الأمير أزبك ابن ططخ الظاهري في عهد السلطان قايتباي يعمر منطقة بركة الأزبكي(وكان أسمها بركة بطن البقرة) التي أمر الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله ٤١١-٤٢٧هـ بحفرها مكان بستان المقسى حوالى سنة ٤١١هـ/١٠١٩م وأرسل إليها ماء النيل من خليج الذكر وعرفت بعد ذلك بالأزبكية نسبة إلى الأمير أزبك حوالى سنة ٨٨٠-٨٨٢هـ/١٤٧٥-١٤٧٧م حيث أنشا قصراً له عدة منشآت وأخرى حولها وأعاد حفرها وأجرى لها الماء من الخليج الناصري وبنى حولها رصيفا كما بنى الشهابي أحمد بن العيني قصراً له في المنطقة المعروفة به إلى الوقت الحالي (القصر العيني).

كانت مدينة القاهرة زاخرة بالعديد من المنشآت متعددة الأغراض والتي تغطى مختلف جوانب النشاط البشري الذي كان سائدا في تلك الفترة وقد تبقى العديد منها من مساجد ومدراس وخانقاوات وزوايا ووكالات حيث كانت مدينة القاهرة عاصمة تجارية وتجتذب التجارة من الشرق والغرب كما كانت مقصدا لطلاب العلم . وكانت المدينة محاطه بالمتنزهات العامة والبرك الصناعية فهي مدينة تعج بالنشاط كما يخلد فيها المرء للراحة والهدوء.

وبذلك أصبحت القاهرة كالعروس بين مدن الإسلام جميعاً تبهر العالم بعظمتها وغناها. وكان المجتمع القاهري بما انتهى إليه من بذخ وترف ورقي يجذب إليه المعجبين من كل مكان . وقد وصف القاهرة وعظمتها من غير أبنائها في مختلف العصور كثير من أعلام الإسلام الذين قصدوها من المشرق والمغرب ، كعبد اللطيف البغدادي* ، وياقوت الحموي** ، وابن جبير الأندلسي*** ثم الرحالة الأشهر ابن بطوطة[1].

خلاصة الفصل الأول :

* **موفق الدين عبداللطيف البغدادي** : لم يكن من علماء النحو في القرن السادس الهجري فحسب، بل كان طبيباً وفيلسوفاً وعالماً لغوياً ومؤرخاً وبيولوجياً من طراز رفيع، فقد حاز العلوم كلها وضرب في جميع فروع العلم بسهم.ترجمت له كتب الطبقات والتراجم العديدة.زار البغدادي العديد من الدول لذا نسب له لقب الرحالة، فانطلق من بغداد إلى الموصل ثم إلى دمشق والقدس وحلب ومصر وبلاد الروم واذربيجان فعاش متعلماً ومعلماً وعالماً.نزل هذا العالم العبقري أرض مصر سنة ٢٩٥هـ،

** **شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي**: (٥٧٤ - ٦٢٦ هـ) أديب ومؤلف موسوعات وخطّاط من أصل رومي اشتغل بالعلم وأكثر من دراسة الأدب، وقد سمى نفسه (عبد الرحمن). وأهم مؤلفات ياقوت الحموي كتاب (معجم البلدان) الذي ترجم وطبع عدة مرات.
وورد في كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: «ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي شهاب الدين أبو الدر: كان من خدام بعض التجار ببغداد يعرف بعسكر الحموي وياقوت هذا هو صاحب التصانيف والخط أيضاً ووفاته سنة ست وعشرين وستمائة.

*** **محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن سعيد الأندلسي** : من بني ضمرة من قبيلة كنانة المضرية العدنانية وكان من أسرة عريقة سكنت الأندلس عام ١٢٣ هـ، أتم حفظ القران الكريم، ودرس علوم الدين وشغف بها وبرزت ميوله أيضا في علم الحساب والعلوم اللغوية والادبية واظهر مواهب شعرية ونثرية رشحته للعمل كاتبا. تعلم على يد ابيه وغيره من العلماء في عصره ثم استخدمه أمير غرناطة أبو سعيد بن عبد المؤمن ملك الموحدين في وظيفة كاتم السر فاستوطن غرناطة.
وكان الأمير أبا سعيد استدعاه يوما ليكتب عنه كتابا وهو يشرب الخمر، فأرغم ابن جبير على شرب سبعة كؤوس من الخمر وأعطاه سبعة اقداح دنانير، لذلك صمم ابن جبير على القيام برحلة الحج بتلك الدنانير تكفيرا عن خطيئته واقام في سفره سنتين ودون مشاهداته وملاحظاته في يوميات عرفت برحلة ابن جبير، وسميت باسم "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" والذي كتبه حوالي سنة ٥٨٢ هـ/ ١١٨٦ م وتداوله الشرق والغرب حتى قام المؤرخ والمترجم الإنجليزي ويليام رايت بنشره وطبعه في كتاب جمع عدد كبير من الرحلات لرحالة وحجاج عرب وأجانب مسلمين ومسيحيين ويهود عرف باسم " Early travelers in Palestine

[1]) El-Bahnasi, Salah -Selim, Enaam: Mamluk Art : ***The Splendour and Magic of the Sultans*** , Publisher: Museum With No Frontiers, MWNF (Museum Ohne Grenzen) ,pp:65:67.

١. ظهرت المماليك لأول مرة في العالم الإسلامي حين انخرط عدد قليل من الترك من بلاد فرغانة وطشقند وبلاد ما وراء النهر في قوات الحرس ،والسكرتارية الخاصة بدولة الخلافة العباسية في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي.
٢. حين حلت خلافة المعتصم كان الحرس الإمبراطوري كله من الترك.
٣. توسعت مصر في استخدام المماليك قبل قيام دولتهم بها بوقت طويل.
٤. عند ختام القرن التاسع الميلادي قام حاكمها أحمد بن طولون ٨٦٨ - ٩٠٥ م وهو من سلالة المماليك التركية بخلع الخلافة العباسية عن مصر ، واعتلى عرش مصر، واعتمد ابن طولون على المماليك من أبناء جنسه التركي في ولايته. غير أنه طمع إلى شيء من الاستقلال بمصر ، ولذلك اهتم فيما اهتم بالجيش على وجه خاص .
٥. وأتى بعد الطولونيين الإخشيديين حيث أسس الأسرة محمد بن طغج ٣٢٣-٣٣٤هـ / ٩٣٥-٩٤٦ م ، والذي تولى سنة ٩٣٠ م ولاية الشام من قبل العباسيين، ثم أصبح سنة ٩٣٣ م والياً على مصر. استقل بالأمر منذ سنة ٩٣٥ م.
٦. ثم انتهت الدولة الإخشيدية بقيام الدولة الفاطمية في مصر ٣٥٨ – ٥٦٧ هـ ، لتصبح خلافة فاطمية لا تتبع الخلافة العباسية في بغداد.
٧. انتهت الدولة الفاطمية بقيام الدولة الأيوبية على يد الناصر صلاح الدين سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١م.
٨. والدولة الأيوبية كما هو معروف كردية الأصل ، ولكنها جاءت عن طريق الدولة السلجوقية التركية ومماليكها ، ونقلت عنها الكثير من عاداتها وأنظمتها التركية المشرقية ،وطبقتها في مصر والشام لأول مرة.
٩. بدأت دولة المماليك البحرية ، عندما نصب المماليك "شجر الدر" سلطانا على البلاد خلفا لزوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب.
١٠. كان الحكام من المماليك البحرية ، يتم اختيارهم من بين أبناء السلطان . فقد خلف بيبرس البندقداري اثنان من أبنائه ، ثم تولى بعدهما قلاوون وأبنائه ثم أحفاده وأبناء أحفاده.
١١. وأرسى سلاطين المماليك مبدأ عدم وراثة العرش إلا في حالات نادرة، فكان عندما يموت السلطان يولي أحد أبنائه حتى يستقر الأمر ، ثم يتولى أقوى الأمراء السلطنة، وعلى سبيل المثال ابن السلطان أيبك وأبناء السلطان بيبرس .
١٢. وكان أبناء السلاطين مسلمين أحرار . ومن ثم يتم استبعادهم من الجيش المملوكي . ونتيجة لذلك لم يكن لهم أن يرثوا منصب آبائهم السياسي.
١٣. ولدت دولة المماليك ليجد سلاطين المماليك أنفسهم أمام مسئوليات جسام ، تتمثل في تطهير الوطن العربي من الصليبيين والمغول وخصوصاً بعد أن غزا المغول العراق عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م. واستولوا على بغداد وقتلوا الخليفة العباسي المستعصم بالله ٦٤٠-٦٥٦هـ ؛ فقامت مصر لتدرأ الخطر المغولي ، وتمكن الجيش المصري بقيادة سيف الدين قطز ، من إنزال هزيمة ساحقة بالمغول عند عين جالوت ٦٥٨هـ .
١٤. وكان عهد المماليك في مصر مسرحاً للفتن والاضطرابات فيما بينهم ومع جيرانهم في الشام وفلسطين ، وذلك للوصول إلى السلطة والثروات التي تدعم ملكهم.
١٥. وتمثل فترة حكم أسرة قلاوون مرحلة مهمة في تاريخ وحضارة مصر بصفه عامة ودولة المماليك بصفة خاصة إذ تمكن سلاطين هذه الأسرة من صد هجمات الصليبيين والمغول مما كان له أكبر الأثر في مختلف مجالات الحياة.
١٦. لم تكن الدولة المملوكية الثانية سوى امتداد للدولة المملوكية الأولى من حيث الخصائص الحضارية والاتجاهات الاقتصادية والتنظيمات الإدارية.
١٧. واجهت دولة المماليك البرجية مثل سابقتها الخطر المغولي ممثلا في الدولة التيمورية التي أرسلت تهديدا للسلطان برقوق .
١٨. يمثل عصر السلطان "برسباي" الذي تولى السلطنة عام ٨٢٥هـ/١٤٢١م مرحلة من الاستقرار والسيادة المصرية على نطاق واسع في البحر المتوسط حيث تمكن من فتح قبرص عام ٨٢٩هـ/١٤٢٦م.
١٩. كما بسطت الدولة المملوكية سيادتها على ميناء جدة وموانئ البحر الاحمر تحقيقا لسياسة احتكار التجارة الداخلية والخارجية التي بدأها السلطان برسباي.
٢٠. سار السلطان جقمق ٨٤٢هـ/١٤٣٨م على سياسة برسباى في تأديب قراصنة البحار لتأمين التجارة في البحر المتوسط.
٢١. شهدت مصر فترة من القوة بتولي السلطان قايتباى حكمها سنه ٨٧٢هـ/١٤٦٨م إذ كانت مصر دولة مهابة الجانب يسعى ملوك العالم لعقد الاتفاقيات معها نظرا لما استطاع السلطان قايتباى تحقيقه من انتصارات بالإضافة إلى استقرار الاحوال الداخلية لمصر الذي ينعكس بوضوح في مجموعة المنشآت التي خلفها قايتباى وأمراؤه.
٢٢. مصر قد شهدت فترة من الاضطرابات بعد قايتباى ولكن الأمور عادت إلى ما كانت عليه بتولي السلطان قنصوه الغوري عام٩٠٦هـ /١٥٠١م الذي سار على النهج نفسه فاهتم بتحصين السواحل مثل ترميم قلعة قايتباى بالإسكندرية
٢٣. **نظرية المماليك البحرية والبرجية** :يمكن هدم نظرية المماليك البحرية والبرجية ، فكلاهما انصهرا مع بعضهما البعض ويؤكد ذلك أيضاً ما ذكره المقريزي بخصوص تزاوج ابن بيبرس الملك سعيد ناصر الدين من ابنة قلاوون

وحيث أن قلاوون كان قبجاقي الجنس من قبيلة مرج وجعل من جملة البحرية " ، أي أن قلاوون لم يكن من الأصل التركي وإنما كان من أصل شركسي (أي يمكن نسبه إلى مماليك الدولة البرجية) بالرغم من أن فترة حكمه هو وأولاده تجاوزت تسع وخمسون عاماً وكانت أطول فترة حكم في تاريخ دولة المماليك بوجه عام.

٢٤. **تربية المماليك** :عاش المماليك في مصر طبقه منفصلة ممتازة عن سائر السكان بالبلاد المصرية ، وساعد ذلك على قيام نظام طبقي و ضحت فيه كل طبقه من طبقات المجتمع وضوحاً أملاه مركزها و نوع نشاطها.

٢٥. المماليك كانوا الطبقة العسكرية الممتازة التي سيطرت على البلاد و أهلها، و لهم في أصلهم و نشأتهم و طريقة تربيتهم و أسلوبهم الخاص في الحياة و عدم اختلاطهم بأهالي البلاد ، سياج يحيط بهم و يجعل منهم طبقه ذات خصائص تعزلها عن المحيط الذي تعيش وسطه.

٢٦. المماليك لم يكونوا جميعاً من أصل واحد : فالسلطان قطز هو ابن أخت ملك خوارزم جلال الدين مانجوبرتى الذي قضت عليه جيوش جنكيز خان و السلطان قلاوون قفجاقى من قبيله برج أغلى ببلاد القفجاق و السلطان كتبغا مغولي الأصل جاء الى مصر أسيراً في موقعة حمص سنه ٦٥٨ هـ و السطان لاجين أصله من إحدى البلاد الواقعة على شاطئ بحر البلطيق.

٢٧. **انتساب المماليك** :انتسب هؤلاء المماليك غالباً إلى أساتذتهم ، أي سادتهم الذين اشتروهم من التجار ، أو انتقلوا إليهم بطريقه أو أخرى ؛ فالأشرفية خليل نسبه إلى السلطان الأشرف خليل ، و ربما انتسب المملوك إلى تاجره الذى جلبه ، و لصقت به هذه التسميه طول حياته ، مثل يابغا السالمي نسبه إلى التاجر الذي جلبه و اسمه سالم ، و أحيانا نسب المماليك إلى أصولهم و قبائلهم مثل المماليك العثمانية الذين أسرهم أزبك سنه ٨٩٤ هـ / ١٤٨٨ م عندما انتصر على الأتراك العثمانيين ، فأنزلهم قايتباى في ديوانه .و ربما انتسب المملوك إلى قيمته التي أشترى بها إذا كانت مبلغاً كبيراً يستحق التفاخر و يدل على ما في المملوك من صفات طيبه و مواهب ، مثل قلاوون الذي اشتراه أستاذه الأمير علاء الدين آقسنقر بألف دينار " و غالى في قيمته لحسنه و صورته فعرف بالألفي."

٢٨. **سيكولوجية المماليك**: المملوك ذو تركيبة نفسية بالغة التعقيد وقد ساهمت الظروف البيئية والسياسية والاجتماعية والتربوية في ذلك ؛فالمماليك من أجناس وعرقيات مختلفة أغلبها من آسيا الصغرى (منغوليا – جورجيا- القوقاز- أذربيجان –سيركاسيا) فَهُم: لايتحدثون بلغة واحده .. ولا يعتنقون ديناً واحداً..

٢٩. وبالرغم من اعتناقهم الإسلام إلا أن الغالبية العظمي منهم كان الدين لهم مفتاح طريق للوصول إلى السيادة والقليل منهم من فهم مبادئ الدين وعامل الآخرين بتلك المبادئ.

٣٠. وبالرغم من تباين أصول المماليك إلا أنهم جميعاً اشتركوا في أمر واحد هو تقلب الشخصية ، فالضحكة الباسمة تتناوب مع الغضبة المتجهمة والحماس يتناوب مع الفتور ، وأحط الشرور تتواجد في نفس الوقت مع الروحانية الشفافة.

٣١. جمعت الشخصية المملوكية متناقضات عدة ، كان لها عظيم الأثر في خلق فلسفة خاصة بهم ، وتأثرت بها عمائرهم .

٣٢. **الاهتمام بالعمارة الدينية**: لقد وجد المماليك في الدين الوسيلة المثلى لتحقيق أهدافهم ، والطبقات الحاكمة استعملت الدين لمصلحتها وتتخذ منه قناعاً لسياستها ومصدراً هاماً لشرعيتها وحتى وسيلة من وسائل القمع التي تستخدمها وأن أغلب الفرق الدينية والشيع والطوائف التي تكاثرت فجأة في صدر الإسلام وما بعده بدأت أصلاً على شكل أحزاب سياسية وصراعات على السلطة والحكم ، تستغل القوة لتشريع وجودها غير الشرعي مرة ، أو لتبرير مظالمها وابتزازها مرة أخرى.

٣٣. السلطان الظاهر بيبرس البندقداري أول سلاطين دولة المماليك البحرية الذين تبوؤا عرش مصر مدة طويلة من الزمان ؛ فشيد المساجد وزخرفها وأسس المعاهد الدينية وخفف الضرائب التي كانت سبباً في تنغيص حكم سلفة ، وهو بذلك يستهوي القلوب ويكفر عن السيئات التي ارتكبها هو وأخواته من الأسرة البحرية ، في حق السلطان توران وقطز وشعب مصر.

٣٤. ولهذا يعتبر عصر المماليك العصر الذهبي في تاريخ العمارة الإسلامية في مصر فقد زادت الرغبة في تشييد عدد كبير من الأبنية التي اهتمت بالنزعة الدينية كالجوامع والمدارس الدينية والأضرحة والمدافن والأسبلة . هذا بالإضافة للحمامات العامة والوكالات التجارية .

٣٥. وزادت العناية في هذا العصر بواجهات المساجد وذلك بتتابع طبقات أو مداميك أفقية من أحجار صفراء وأخرى حمراء داكنة أو في عمل تجاويف أو حنايا عمودية قد تفتح فيها نوافذ وقد تنتهي في أعلاها بزخارف معمارية من المقرنصات ويظهر ذلك في أشرطة الزخارف والكتابات القرآنية أو التاريخية وفي شرفات مسننة تتوج بها الواجهة.